التقــوى

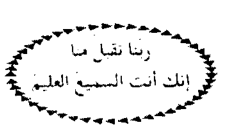
الدرة المفقودة والغاية المنشودة











محفوظة
جميع الحقوق

٢٠١١

رقم الإيداع

٢٠٠٤ / ٢٢٢٣٢

الترقيم الدولي

977/331/361/1



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - اسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٠١٠٥٤١١٩١٠ - ٠٢٠٠٢٢٢٥
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحـمدُه، ونستعينُه، ونسـتغـفرُه، ونعوذُ بالله مِن شـرورِ أنفسِنا ومِن سـيئاتِ أعمـالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له ومن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١).

أما بعـــد:

فإن أصـــدقَ الحديث كـتابُ الله، وخـير الهــدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور مـحـدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ففي مثل هذه الأزمنة الغابرة التي استـولت فيها الغفلة على القلوب، وضعفت فيها العين المتطلعة إلى الآخرة فلا تكاد ترى، وظن النـاس أن السـعـيـد من فـاز في الدنيـا بشهواتها، ومن وصل إلى جـاهها وسلطانها، والشقي من حـرم هذا الخـيـر العظيم والرزق الكـريم وهذا من الغـفلة الشنيعة والجـهل البليغ بالسعادة الحقيقـية والشرف العظيم الذي جـعله الله عَزَّ وجَلَّ للمـتقين في الحـياة ويوم يقـوم الناس لرب العـالمين ولو ذاقت قلوب أهل الدنيـا شيئًـا من مواجـيد أهل التـقوى ومـا يجدونه من العـزة والشرف في الدنيا مـع ما ينتظرهم من سـعادة الآخرة ونعـيمـها لأكلوا أصابعهم ندمًا وحسرة على مـا فاتهم من الخير ويفوتهم إذا

استمرت غفلتهم، فالتـقوى كما قال الغزالي ـ رحمه الله ـ : «كنز عـزيز، فلئن ظفـرت به كم تجـد فيـه من جـوهر شريف، وخـير كـثيـر، ورزق كريم، وفـوز كبيـر، وغنم جسيم، وملك عظيم، فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجـعلت تحت هذه الخـصلة الواحدة التي هي تـقوى الله، وتأمل ما في القرآن من ذكرها فـكم علّق بها من خير وكم وعد عليها من خير وثواب وكم أضاف إليها من سعادة»[1].

فأهل التـقوى هم ملوك الدنيـا كما أنـهم ملوك الآخرة وهم أهل السـعادة الحقـيقيـة، والشرف العظيم فـي الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى: ﴿ والْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (طه: ١٣٢)، وقال تعالى: ﴿ وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٣٥).

وأنت يا أخي الكريم مـعي في هذا الكـتاب نسـيـر مع التـقوى في كل باب لعلي وإيـاك عند الختـام يمن الله علينا

---

(١) «منهاج العابدين» (٧) مكتبة الجندي.

بالتوبة النصوح، وما لها من الفتوح، ويجعلنا من المتقين، والذين تقر أعينهم في الدنيا بالطاعات، وفي الآخرة بالجنات، وقد جمعت لك في هذا الكتاب من المعاني الشريفة، والفوائد اللطيفة ما تنشرح له القلوب، وتقترب له من علام الغيوب، وغفار الذنوب، فبدأت بذكر معاني التقوى وأقسامها، وثنيت بذكر شرفها وخطرها، ثم اجتهدت في الباب الثالث في بيان ما تتطلع إليه قلوب أصحاب الهمم العالية والنفوس الأبية، وهو في بيان كيف تتقي الله عَزَّ وجَلَّ.

وذكرت لك خمسة وسائل: الأولى محبة الله عَزَّ وجَلَّ، والثانية في استحضار المراقبة والحياء، والثالثة في معرفة ما في طريق الحرام من الشرور والآلام، والرابعة في بيان كيف تغالب هواك، وتطيع مولاك، والخامسة في معرفة مكائد الشيطان ومصائده، والحذر من وسواسه ودسائسه، ثم زدتك تشريفًا وتعريفًا بأصحاب الرتب العالية

والدرجات الرفيعة الساميـة، بذكر صفات المتقين، وختمت بحسن الخـتام، وهو رحلة في رياض التقـوى، ننزه قلوبنا وأبصارنا برؤية ثمرات التقوى العاجلة والآجلة، والأمر كما يقال: **طبيب يداوي ... والطبيب سقيم.**

ولولا ما نطمع فـيه من رحمة الله وعفـوه وكرمه، وأن لا نحرم دعـوة صالحة من أخ كريم، لتـقطعت القلوب يأسًا من النفوس وصـلاحها وقلة تقـواها، ولا تظن أن من تكلم عن التقوى فقد صار بذلك من المتقين، فما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى واكتساب الأموال وهو فقير، وبين العلم بأسباب الصحة وهو سقيم، ولكن نرجو بذكر القوم ومحبتهم أن نجد ريحًا من آثار غبارهم، أو أن نلحق ولو بساقاتهم.

وكما قال ابن الجوزي - رحمه لله -: إنْ صدقت في طلابهم فانهض وبادر، ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر، تعرض لمن أعطاهم وسل فمولاك مولاهم، رب كنز وقع به فقير،

ورب فضل اختص به صغير، علم الخضر ما خفي على موسى، وكشف لسليمان ما خفي على داود[1].

وسوف تجد في صحبة هذا الكتاب ومبانيه ما يبين لك شرف معانيه، فتجد شرف التقوى في طياته، وسعادتها بين وريقاته، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها، وأن يقسم لنا من كنوزها وثمراتها، وأن يبارك في هذا الكتاب وفي جامعه وناشره ومن قرأه يلتمس الهداية والتوفيق، والله الهادي لأقوم طريق؛ فهو الذي تقر القلوب بمحبته في الدنيا ورؤيته في الجنة، وصلى الله على رسوله المصطفى وآله وأصحابه ومن اتبع السنة وسلم تسليمًا.

وكتبه

أحمد فريد

---

(١) «المدهش» لابن الجوزي (٤٢٨) بتصرف، دار الكتب العلمية.

معنى التقوى ومراتبها

المعنى اللغوي:

قال في المصباح: «وقاه الله السوء وقاية: حفظه»، والوقاء مثل كتاب كل ما وقيت به شيئًا، وروى أبو عبيد عن الكسائي الفتح في (الوقاية) و(الوقاء)، أيضًا و(اتقيت) الله (اتقاءً) و(التقية) و(التقوي) اسم منه والتاء مبدلة من واو والأصل (وقى) اهـ[1].

المعنى الشرعي:

اختلفت تعبيرات العلماء في تعريف التقوى مع أن الجميع يدور حول مفهوم واحد، وهو أن يأخذ العبد وقايته من سخط الله عَزَّ وجَلَّ، وعذابه، وذلك بامتثال المأمور واجتناب المحظور.

---

(١) «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير»، للرافعي (٦٦٩)، دار المعارف.

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ : وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه، وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله عَزَّ وجَلَّ، كقوله تعالى: ﴿ واتَّقُوا اللهَ الَّذي إلَيْه تُحْشَرُونَ ﴾ (المائدة:٩٦)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ولْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحشر:١٨).

فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه وتعالى فالمعنى: اتقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي، قال تعالى ﴿ ويُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (آل عمران:٢٨)، وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر:٥٦)، فهو سبحانه أهل أن يخشى ويهاب ويجل ويعظم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه، لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش، وفي الترمذي عن أنس عن

النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ (المدثر: ٥٦)، قال الله تعالى: «أنا أهل التقوى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا آخر فأنا أهل أن أغفر له»[1].

وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله، أو إلى مكانه كالنار، أو إلى زمانه كيوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٣١)، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١)، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ (البقرة: ٤٨).

ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات، قال تعالى: ﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٤٢، ٢٤٣) وابن ماجه (٤٢٩٩) «الزهد»، والدارمي (٢/ ٣٠٣) «الرقاق»، وضعفه الألباني.

الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة: ١ ـ ٤).[1]

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهي، وخوفًا من وعيده، كما قال طلق بن حبيب: «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى»، قالوا: «وما التقوى؟»، قال: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»، وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى، فإن كل عمل لابد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لابد أن يكون مبدأه محض الإيمان وغايته ثواب الله،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١٤٨، ١٤٩) باختصار.

وابتغاءمرضاته وهو الاحتساب، ولهذا كثيرًا ما يقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا»**[(١)]، **«ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا»**[(٢)]، ونظائره، فقوله: «على نور من الله»، إشارة إلى الأصل الأول وهو مصدر العمل والسبب الباعث عليه، وقوله: «ترجو ثواب الله»، إشارة إلى الأصل الثاني، وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها توقع العمل ويقصد به[(٣)].

وقال العلامة نعمان بن محمود الألوسي - رحمه الله -: وفي تحفة الإخوان: التقوى امتثال الأوامر واجتناب النواهي ولها ثلاث مراتب:

الأولى - التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ (الفتح: ٢٦).

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١١٥) «الصوم».

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٥٥) «فضل ليلة القدر»، ومسلم (٦/ ٤٠، ٤١) «صلاة المسافرين».

(٣) «الرسالة التبوكية»، بتحقيق أشرف عبد المقصود ونشر مكتبة التوعية الإسلامية (١٥/ ١٧).

والثانية ـ التجنب عن كل ما يوثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ (الأعراف: ٩٦)، وعلى هذا قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير».

الثالثة ـ أن يتنزه عما يشغل سره عن الله تعالى، وهذه هي التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ (آل عمران: ١٠٢)، وقال ابن عمر: «ألا ترى نفسك خيرًا من أحد»[(١)].

وقال الغزالي ـ رحمه الله ـ: اعلم أولا ـ بارك الله في دينك وزاد في يقينك ـ أن التقوى في قول شيوخنا رحمهم الله

---

(١) غاية المواعظ، ومصباح المتعظ وقبس الواعظ (٢/٤٨) دار المعرفة، وقول ابن عمر رضي الله عنهما لا شك أنه يشير إلى نوع من التقوى وليست التقوى الكاملة، وأصح من ذلك أن يقال هو نوع من «الزهد»، وهو الزهد في النفس، والزهد في النفس أقصى غاية الزهد.

هي تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله، حتى تحصل لك من القوة والعزم على تركه وقاية بينك وبين المعاصي، فإذن لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصي من قوة عزمه وتوطين قلبه على ذلك فيوصف حينئذٍ بأنه متقٍ، ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين: التقوى.

والتقوى في القرآن تطلق على ثلاثة أشياء: أحدها بمعنى الخشية والهيبة، قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُون﴾ (البقرة:٤١)، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّه﴾ (البقرة:٢٨١)، والثاني بمعنى الطاعة والعبادة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِه﴾ (آل عمران:١٠٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «اطيعوا الله حق طاعته»، وقال مجاهد: «هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر»، والثالث: بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب، فهذه هي الحقيقة عن التقوى دون الأولين، ألا ترى أن الله يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْه

﴿فأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور: ٥٢)، ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية، وهي تنزيه القلب عما ذكرناه، ثم قالوا: منازل التقوى ثلاثة: تقوى عن الشرك، وتقوى عن البدعة، وتقوى عن المعاصي الفرعية، ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة، وهي قوله جل من قائل: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ (المائدة: ٩٣).

فالتقوى الأولى عن الشرك، والإيمان الذي في مقابلتها التوحيد، والتقوى الثانية من البدعة، والإيمان الذي ذكر معها إقرار عقود السنة والجماعة، والتقوى الثالثة عن المعاصي الفرعية، ولا إقرار في هذه المنزلة فقابلها بالإحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها، فتكون منزلة السنة، ومنزلة استقامة الطاعة، قال: وأنا وجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال، وهو ما روي في الخبر المشهور عن النبي

ﷺ أنه قال : **«إنما سمي المتقون متقين لتركهم مالا بأس به حذراً عما بأس به»**[(١)] .

فهذه أقـوال العلماء في معنى التقوى وأقسـامها ولاشك أن اسم التـقـوى يسع ما ذكـر، وأحـوال الناس مـعهـا لا تعارض ذلك، فمن الناس من يقـي نفسه الخلود في النار، وذلك بالإقرار بالتوحيد وتصديق الرسول ﷺ ولكنه لا يقي نفسـه خلود النار بالكلية، فـيفرط في والواجـبات ويتلبس بالمخـالفات، فـهـذا نوع من التـقوى، وإن كـان في أدنى درجاتهـا، ولا يستحق صـاحبهـا اسم المتقي بإطلاق، لأنه متعرض للعذاب مستحق العقاب، إن لا تتداركه رحمة الله فإنه تعـالى لا يغفر أن يـشرك به، ويغفـر ما دون ذلك لمن

---

(١) «منهاج العابدين» (٧٤, ٧٥) بتصرف مكتبة الجندي.
ـ والحديـث رواه الترمـذي (٩/ ٢٧٨) القيامـة، وقال: هذا حـديث حـسن غريب لا نعـرفـه إلا من هذا الوجـه، وابن ماجـه (٤٢١٥) الزهد، والحـاكم (٤/ ٣١٩) الرقـاق، وقال: صـحـيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني: وهذا عجب منه فإنَّ عبد الله ابن زيد لم يوثقه أحد. وضعفه في «بلوغ المرام» (٨٧١)، و«ضعيف ابن ماجه» (٩٢٤).

يشاء، ومن الناس من يتقي الكفر وكبائر الذنوب إلا إنه لا يتورع عن الصغائر ولا يكثر من النوافل.

فلا شك أنه أقرب للنجاة لقول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما** ﴾ (النساء: ٣١)، وقوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»[١].

إلا أنه لم يأخذ الجُنَّة الكاملة من النار، فلابد أن يكون هناك من التقصير في الفرائض، والوقوع في الصغائر التي يخشى من المداومة عليها التجرؤ على الكبائر، وليس له من نوافل الطاعات واجتناب الشبهات، والمكروهات، ما يكمل به تقوى العبد، لذا قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته** ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

(١) رواه مسلم (٣/١١٧، ١١٨) «الطهارة»، والترمذي (٢/١٤، ١٥) «الصلاة».

فالتقـوى الحقيقـية هي أن يجتهد العـبد في ترك الذنوب كلها صغارها وكبارها، ويجتهد في الطاعات كلها الواجبات والنوافل ما استطاع، لعل كثرة النوافل تعوض ما قد يعرض من تقصير، واجتناب الصغـائر يجعل بين العبد وبين الكبائر جُنَّة حصينة كـما قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ (التغابن: ١٦)، فمثل هذا يـستحق اسم المتقي، واجـتهاده في الطاعات كـلها من الواجبـات والنوافل، وترك المعـاصي ما استطاع من كبائر وصـغائر، وترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس هو التقوى التي دارت عليها أقوال السلف.

قال أبو الدرداء: تمام التقوى أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بـعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيـرهم إليه فقال: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (الزلزلة: ٧-٨)، فلا تحقرن شيئًا من الخير أن تفعله ولا شيئًا من الشر أن تتقيه.

قال الحسن: «ما زالت التقـوى بالمتقين حتى تركوا كـثيراً من الحلال مخافة الحرام».

وقال الثوري: «إنما سموا متقين لأنهم اتقوا ما لا يتقى».

وقال موسى بن أعين: المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام فسماهم الله متقين.

وقال ميمون بن مهران: «المتقي أشـد محاسبة لنـفسه من الشريك الـشحيح لشـريكه»، وقال ابن مـسعـود في قوله تعالى: ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، قال: «أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يكفر»[١].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات ومعنى ذكره فلا ينسى: ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته وكـلماته فيتمثـلها، ولنواهيه في ذلك كله فيجـتنبها، وقد يغلب اسـتعمال التقـوى على اجتناب المحرمـات، كما قال أبو هريرة وسُـئل عن التقوى فـقال:

---

(١) رواه الحـاكم (٢/ ٢٩٤) «التـفـسيـر»، دون قـوله: «وأن يشكر فـلا يكفر»، وقال على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

«هل أخذت طريقًا ذا شوك؟»، قال: «نعم»، قال: «فكيف صنعت؟»، قال: «إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه»، قال: «ذاك التقوى»، وأخذ هذا ابن المعتمر وقال:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التُّقى

واصنع كماش فوق ... أرض الشوك يحذر ما يرى

ولا تحقرنَّ صغيرةً ... إن الجبال من الحصى

وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقي.

ذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس قال: «كيف يكون متقيًا من لا يدري ما يتقي؟»، ثم قال معروف الكرخي: «إذا كنت لا تحسن تتقي أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقي لقيتك امرأة فلم تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقي وضعت سيفك على عاتقك»[1].

---

(١) باختصار من «جامع العلوم والحكم» (١٤٠، ١٥٠).

وروى الحافظ بن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم، قال: قال سعيد: «لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنبًا فاستصغره فأتاه آت في منامه فقال له: يا سليمان:

لا تحقرنَّ من الذنوب صغيراً
إن الصغير غداً يعود كبيرا
إن الصغير ولو تقادم عهده
عند الإله مسطرًا تسطيرا
فازجر هواك عن البطالة لا تكن
صعب القياد وشمِّرن تشميرا
إن المحب إذا أحب إلهه
طار الفؤاد وألهم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإله فتتئد
فكفى بربك هاديًا ونصيرا

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «التقوى هي ترك ما تهوى لما تخشى»، وقيل: «هي الخوف من الجليل، والرضا بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل»، وقيل: «هي أن لا

يراك الله حيث نـهاك، ولا يفقـدك حيث أمـرك»، وقيل: «هي علم القلب بقرب الرب».

ونسأل الله أن يهدينا سواء السبـيل، وأن يغفر لنا ما بدا من تقصير، وأن يدخلنا في شفاعـة البشير النذير، فقد بان بما ذكرنا عن التقوى فقرنا من أقسـامها ومعانيها، وإفلاسنا من أعلامها ومبانيها.

شرف التقوى وأهميتها

١ ـ التقوى وصية الله عَزَّ وجَلَّ للأولين والآخرين

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (النساء: ١٣١).

قال الغزالي: أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد، أوليس هو أنصح له وأرحم، وأرأف من كل أحد، ولو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد، وأجمع للخير، وأعظم للأجر، وأجل في العبودية، وأعظم في القدر، وأولى بالحال، وأنجح في المآل، من هذه الخصلة التي هي التقوى، لكان الله تعالى أمر بها عباده، وأوصى خواصه بذلك لكمال حكمته وسعة رحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة، وجمع الأولين والآخرين من عباده في ذلك واقتصر عليها، علمت أنها الغاية التي لا متجاوز عنها، ولا مقصود دونها، وأنه عَزَّ وجَلَّ قد جمع كل نصح

ودلالة وإرشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الخصلة الواحدة، كما يليق بحكمته، ورحمته، وعلمت أن هذه الخصلة التي هي التقوى هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة الكافية لجميع المهمات المبلغة إلى أعلى الدرجات.

وهذا أصل لا مزيد عليه، وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى وعمل بذلك واستغنى والله وليّ الهداية والتوفيق بمنّه[1].

٢- التقوى وصية النبي ﷺ لأمته

عن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: «يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا»، فقال: **«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيراً،**

---

(١) «منهاج العابدين» (٧٢، ٧٣) باختصار.

فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[(١)].

قوله: **«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة»، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ:** فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة، أما التقوى فهي كافلة سعادة الدنيا والآخرة لمن تمسك بها، وهي وصية الله للأولين والآخرين، وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم[(٢)].

وعن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ ابن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«اتق الله حيثما كنت،**

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (٤٥٨٣) «السنة»، والترمذي (٢٦٧٦) «العلم»، وابن ماجه (٣٤)، والدارمي (١/ ٤٤، ٥٤) «المقدمة»، والبغوي (١/ ٢٠٥) «شرح السنة»، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢٤٧) باختصار.

واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» [(١)] ، وقوله ﷺ : «حيثما كنت»، أي: في السر والعلانية، حيث يراه الناس وحيث لا يرونه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: **«من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن، أو يعلم من يعمل بهن؟»**، قال أبو هريرة: قلت: «أنا يارسول الله»، فأخذ بيدي وعد خمساً، فقال: **«اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب»** [(٢)] .

---

(١) رواه الترمذي (٨/ ١٥٥) «البر»، وقال: «هذا حسن صحيح»، وأحمد (٥/ ١٥٨)، وحسنه الألباني (١٦١٨) «صحيح الترمذي».

(٢) رواه الترمذي (٩/ ١٨٣ , ١٨٤) «الزهد»، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان، وراه أحمد (٢/ ٣١٠) وابن ماجه (٤٢١٧) «الزهد» بمعناه، وحسنه الألباني، وكذا في تحقيق جامع الأصول.

وعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال: «**اتقوا الله وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم**»(١)، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوصيك بتقوى الله تعالى فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإن روحك في السماء وذكرك في الأرض**»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته، وإذا أسأت فأحسن، ولا تسأل أحداً شيئاً، ولا تقبض أمانة، ولا تقض بين اثنين**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٦١١ تحفة) «الصلاة»، وقال: هذا حديث حسن صحيح»، ورواه أحمد (٥/ ٢٥١)، والحاكم، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٨٢)، وحسنه الألباني بشاهده وهو في «الصحيحة» رقم (٥٥٥).

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٨١) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٥٤١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف»[(١)]، وكان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[(٢)].

٣- التقوى هي وصية جميع الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام -

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٠٥، ١٠٦)، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٣، ١٢٤)، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٢٥، ٣٣١)، وابن ماجه (٢٧٧١) «الوصايا»، والحاكم (١/ ٤٤٥، ٤٤٦) (٢/ ٩٨)، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الصحيحة (١٧٣٠): وهو كما قالا إلا أن أسامة بن زيد الليثي فيه كلام يسير حسن الإسناد.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٤١) بزيادة في أوله وآخره، وأحمد (٤/ ٣٧١)، (٦/ ٢٠٩).

(١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ﴾ (الشعراء:١٤٢)، وقال تعالى: ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين (١٦٠) إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ﴾ (الشعراء ١٦٠)، وقال تعالى: ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين (١٠) قوم فرعون ألا يتقون ﴾ (الشعراء: ١٠-١١).

ولا شك أن الرسل هم أزكى البشر، وأنصح الناس لهم، فلو علموا أن هناك خصلة للناس أنفع لهم من التقوى لما عدلوا عنها، فلما أجمعوا عليها بان خطرها وعظم موقعها وشرفها نسأل الله أن يجعلنا من أهلها العاملين بها والمتعاونين عليها.

٤ ـ التقوى وصية السلف الصالح رضي الله عنهم

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ: ولم يزل السلف الصالحون يتواصون بها: كان أبو بكر رضي الله عنه يقول في خطبته: «أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف

بالمسألة، فإن الله عَزَّ وجَلَّ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠)»، ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر دعاه بوصيته، وأول ما قاله له: «اتق الله يا عمر».

وكتب عمر إلى ابنه عبد الله: «أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله عَزَّ وجَلَّ، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، واجعل التقوى نصب عينيك، وجلاء قلبك».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله عَزَّ وجَلَّ، التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثاب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين»، ولما ولي خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أوصيكم بتقوى الله عَزَّ وجَلَّ، فإن تقوى الله عَزَّ وجَلَّ خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف»، وقال رجل ليونس بن عبيد: «أوصني»، فقال: «أوصيك بتقوى الله والإحسان، فإن الله مع الذين

اتقـوا والذي هم المحسنون»، وكـتب رجل من السلف إلى أخ له: «أوصيك بتـقوى الله فـإنها من أكرم مـا أسررت، وأزين مـا أظهرت، وأفـضل مـا ادخرت أعـاننا الله وإياك عليها، وأوجب لنا ولك ثوابها».

وقال شعبة: كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم: ألك حـاجة فـقـال: أوصيك بما أوصى به الـنبي ﷺ معـاذ بن جبل: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[1].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ودع ابن عون رجلاً، فقال: «عليك بتقوى الله فإن المتقي ليست عليه وحشة».

وقال زيد بن أسلم: كان يقال: «من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا»، وقـال الثوري لابن أبي ذئب: «إن اتقيت الله كـفاك الناس، وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئًا»[2].

---

(١)، (٢) باختـصـار من «جـامع الـعلوم والحكم» (ص١٥٠، ١٥١)، والحديث تقدم تخريجه (ص٢٨).

٥ ـ التقوى أجمل لباس يتزين به العبد

قال الله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف:٢٦)، فبعد أن تمنن الله عَزَّ وجَلَّ على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، واللباس ما يستر به العورات، والريش والرياش ما يتجمل به، فالأول من الضروريات، والثاني من الزيادات التكميليات، دلهم على أفضل لباس وهو ما يواري عورات الظاهر والباطن، وهو لباس التقوى.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف:٢٦)، بين أن التقوى خير لباس كما قيل[1]:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى
تقلب عرياناً وإن كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه
ولا خير فيمن كان عاصياً[2]

---

(١) «الفوائد» (١٧) دار الدعوة الإسكندرية.
(٢) البيتان منسوبان لأبي العتاهية.

وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبد الجهني قال: «لباس التقوى: الحياء»، وقال ابن عباس: «لباس التقوى هو العمل الصالح»، وعنه أيضًا: «السمت الحسن في الوجه»، وقيل: «ما علمه الله عَزَّ وجَلَّ وهدي به».

ومن قال أنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات، فدعوى، فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى[1].

٦ ـ التقوى هي أفضل زاد يتزود به العبد

قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ١٩٧)، لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا، أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٦٢٠-٢٦٢١) باختصار.

وكمـا قال الله تعـالى: ﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف:٢٦)، لما ذكر اللباس الحسي ونبه مرشدًا إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع، قال عطاء الخـرساني في قوله: ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ (البقرة:١٩٧)، يعني زاد الآخرة[(١)].

وقـال الزمـخـشـري ـ رحـمـه الله ـ: أي اجـعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القبائح، فإن خـير الزاد اتقاؤها، وقيل: «كان أهل اليمن لا يتـزودون، ويقولون نحن مـتوكلون، ونحن نحج بيت الله أفـلا يطعـمنا، فـيكونون كـلاً على الناس، فنزلت فيـهم»، ومعناه: وتزودا واتقوا الاسـتطعام وإبرام[(٢)] الناس والتثقيل عليهم فإن خير الزاد التقوى: ﴿ وَاتَّقُونِ ﴾: وخافوا عـقابي ﴿ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ يعني: أن قضـية اللب تقوى الله، ومن لم يتقـه من الألباء فكأن لا لب له[(٣)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٣٩) دار المعرفة.

(٢) أي إملالهم واضجارهم.

(٣) «الكشاف» (١/ ٢٤٤) الريان.

٧- أهل التقوى هم أولياء الله عزَّ وجلَّ وهم أكرم الناس

قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٦٣)، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الجاثية: ١٩)، وقال الله عَزَّ وجَلَّ مبينًا أنه لا يستحق الولاية إلا أهل هذه المنزلة العالية والرتبة السامية، فقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٣٤)، وجعل الله عَزَّ وجَلَّ التقوى هي الميزان الحق الذي يوزن به الناس، لا ميزان الحسن والنسب، والمال والشهرة، فقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، وهذا الميزان كذلك هو ميزان النبي ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ: «من أكرم الناس؟»، قال: «**أتقاهم لله**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤١٧) «أحاديث الأنبياء».

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ : إن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس
وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وقد ذكروا أن سلمان ﷺ كان يقول:

أبى الإسلام لا أب لي سواه
إذا افتخروا بقيس أو تميم

فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله ولا كرم ولا فضل لغير المتقي ولو كان رفيع النسب[1].

---

(١) «أضواءالبيان» (٧/ ٦٣٥) باختصار وتصرف.

٨- ولشـرف التقـوى:
أمر الله عزَّ وجلَّ المسلمين بالتعاون عليها ونهاهم عن التعاون على ما يخالفها

قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (المائدة: ٢).

قـال القـرطبي - رحـمـه الله -: قـال الماوردي: «ندب الله سبحـانه وتعالى إلى التعاون بالبر وقـرنه بالتقوى لله، لأن في التـقوى رضا الله تعـالى، وفي البر رضـا الناس، ومن جـمع بين رضـا الله تعالى وبـين رضا الناس، فـقـد تمت سعادته وعمت نعمته».

وقـال بن خـويز منداد في أحكامـه: والتـعاون علي البـر والتقوى يكون بوجـوه: فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعتـه،

في سبيل الله، وأن يكون المسلمين متظاهرين كاليد الواحدة قال رسول الله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[١].

وقال القاسمي ـ رحمه الله ـ: وفي «الإكليل» استدل المالكية بالآية على بطلان إجارة الإنسان نفسه، لحمل خمر ونحوه، وبيع العنب لعصره خمرًا، والسلاح لمن يعصي به وأشباه ذلك انتهى وهو متجه»[٢].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٠٤٤)، والحديث رواه أبو داود (٤٥٠٧) «الديات»، وابن ماجه (٢٦٨٣) «الحدود»، وصححه الألباني.
(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٥) بتصرف.

ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق، فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم متعاونًا على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى، الذين هما جماع الدين كله[1].

* * *

(١) «الرسالة التبوكية» (١٢).

كيف تتقي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ

هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية، التي لا تقنع بالدون، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيع العاجز المغبون، فبعد أن بيَّنا شرف التقوى وتشوقت النفوس إليها فقد يقول قائل: بالله عليك كيف أحوز هذه الجوهرة النفيسة وأصل إلى هذه المرتبة الشريفة؟ فإن المؤمن إذا رُغب في الخير رغب، وإذا خُوف من الشر هرب، ولا خير فيمن إذا زُجر لا يَنزجر، وإذا أُمر لا يَأتمر.

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ: «إنما الفضيلة في أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوم العزم فتمنعها عن كل معصية، وتصونها عن كل فضول، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك، وجميع أركانك، وألجمتها بلجام التقوى، ولهذا الباب شرح يطول، وأما الذي لابد منه هاهنا فأن نقول: «من أراد أن يتقي الله فليراع الأعضاء الخمسة فإنهن الأصول، وهي: العين،

والأذن، واللسان، والقلب، والبطن، فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضررًا في أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال، وإذا حصل صيانة هذه الأعضاء فمرجو أن يكف سائر أركانه، ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى»[1].

فإن قلت: كيف لي أن أصون الأعضاء الخمسة عن معصية الله عَزَّ وجَلَّ؟، وكيف أقيدها بطاعة الله؟، فإن هذا لب السؤال وغاية الآمال والسبب الموصل إلى رحمة الكبير المتعال»، قلت: «سوف أجمع لك من السطور ما يبين لي ولك الطريق، والله وليّ التوفيق، وألخص ذلك في خسمة أمور:

١ ـ محبة الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ تغلب على قلب العبد يدع لها كل محبوب ويضحي في سبيلها بكل مرغوب.

٢ ـ أن تستشعر في قلبك مراقبة الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، وتستحي منه حق الحياء.

---

(١) «منهاج العابدين» (٦٧/ ٧٧) باختصار.

٣ ـ أن تعلم ما في سبيل المعاصي والآثام من الشرور والآلام.

٤ ـ أن تعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك.

٥ ـ أن تدرس مكائد الشيطان ومصائده، وأن تحذر من وسواسه ودسائسه.

١ ـ محبة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فالمحبة شجرة في القلب، عروقها الذل للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادتها التي تسقيها ذكره، فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصًا[1].

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: ومحبة الله سبحانه وتعالى على درجتين:

إحداهما ـ فرض لازم، وهي أن يحب الله سبحانه وتعالى محبةً توجب له محبة ما فرضه الله عليه، وبغض

---

(١) «روضة المحبين» (٤٠٩) دار الصفا.

ما حرمه عليه، ومحبةً لرسوله المبلغ عنه أمره ونهيه، وتقديم محبته على النفوس والأهلين، والرضا بما بلغه عن الله من الدين، وتلقي ذلك بالرضى والتسليم، ومحبة الأنبياء والرسل والمتبعين لهم بإحسان جملة، وعموماً لله عَزَّ وجَلَّ، وبغض الكفار والفجار جملة، وعموماً لله عَزَّ وجَلَّ، وهذا القدر لابد منه في تمام الإيمان الواجب، ومن أخل بشيء منه فقد نقص من إيمانه الواجب بحسب ذلك قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **فلا وربِّك لا يُؤْمِنُونَ حتَّىٰ يُحكِّمُوكَ فيما شجر بيْنهُمْ ثُمَّ لا يجدُوا في أنفُسِهِمْ حرجًا مِّمَّا قضيْت ويُسلِّمُوا تسْليمًا** ﴾ (النساء: ٦٥)، وكذلك ينقص من محبته الواجبة بحسب ما أخل به من ذلك؛ فإن المحبة الواجبة تقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات.

الدرجة الثانية ـ درجة السابقين المقربين، وهي أن ترتقي المحبة إلى محبة ما يحبه من نوافل طاعات، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات، وإلى الرضا بما يقدره ويقضيه

مما يؤلم النفوس من المصائب، وهذا فضل مستحب مندوب إليه وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: قال: **«يقول الله عَزَّ وجَلَّ: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليه مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته»**[1].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ولو لم يكن في المحبة إلا أنها تنجي من عذابه، لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبدًا، وسُئل بعض العلماء: «أين تجد في القرآن إن الحبيب لا يعذب حبيبه؟»، فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ

---

(١) «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (١١, ١٥) باختصار، والحديث رواه البخاري (١١/ ٣٤١) «الرقاق»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤)، وانظر طرق الحديث في «الصحيحة» رقم (١٦٤٠).

اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ (المائدة: ١٨)»[1].

الأسباب الجالبة للمحبة:

١ ـ قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه.

٢ ـ التقرب إلى الله عزَّ وجلَّ بالنوافل بعد الفرائض.

٣ ـ دوام ذكره بالقلب واللسان.

٤ ـ إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

٥ ـ مطالعة أسمائه وصفاته، ومشاهدتها، والتقلب في رياض معانيها.

٦ ـ تذكر نعمه وإحسانه وبره على العبد، فإن القلوب جُلبت على محبة من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.

٧ ـ الخلوة به وقت النزول الإلهي والإذن العام، عند قوله عزَّ وجلَّ: «**هل من سائل، هل من تائب، هل من مستغفر**»[2].

---

(١) «روضة المحبين» (٤١٦).

(٢) حديث النزول رواه البخاري (١٣/ ٤٦٤) التوحيد، ومسلم (٦/ ٣٨، ٣٩)، والترمذي (١٣/ ٣٠) الدعوات، وأبوداود (١٣٠١) الصلاة.

٨ ـ مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم.

٩ ـ مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله من الشهوات والشبهات.

١٠ ـ التفكر في مصنوعاته الدالة على كماله، فإن القلوب مفطورة على محبة الكمال، وكان السلف يفضلون التفكر على عبادة البدن.

١١ ـ تذكر ما ورد في الكتاب والسنة من رؤية أهل الجنة لربهم، وزيارتهم له واجتماعهم يوم المزيد.

ولا شك في أن الاشتغال بهذه الأسباب الجالبة للمحبة مما يشغل القلب بطاعة الله ويبعده عن المعاصي، ثم إذا كملت المحبة فإن المحب لا يعصي محبوبه كما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه
هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقًا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا فتح للعبد هذا الباب الشريف، ودخل هذه القصر المنيف، فإنه تحبب إليه الطاعات، ويجد فيها منتهى راحته وسعادته، قال النبي ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[1]، وكان يصلى حتى ترم ساقاه وتشقق قدماه، فيُقال له في ذلك فيقول ﷺ: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[2].

فمحبة الله عَزَّ وجَلَّ من أعظم أسباب التقوى، كما قال القائل:

وكُن لربك ذا حب لتخدمه
إن المحبين للأحباب خُدام

---

(١) رواه أحمد (٣/١٢٨)، والنسائي، و(٧/٦١) «عشرة النساء»، والحاكم (٢/١٦٠) «النكاح»، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٨٠٩).

(٢) رواه البخاري (٣/١٤) «التهجد»، موصولاً عن المغيرة وبمعناه معلقًا عن عائشة، وابن ماجه (١٤١٩).

فإن المحب يسرُّ بخدمة محبوبه وطاعته، ولا تطاوعه نفسه على معصيته كما قال بعض الصالحين: «إني لا أحسن أن أعصي الله»، أي: أن جوارحه لا تأتي معه في المعصية، لمحبتها للطاعات، وبغضها للمعاصي.

كما نصحت إحدى الصالحات من السلف بنيَّها فقالت لهم: «تعودا حب الله وطاعته فإن المتقين ألفت جوارحهم الطاعة فاستوحشت من غيرها، فإذا أمرهم الملعون بمعصية، مرت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون»، فنسأل الله الغني الكريم أن يمن علينا بمحبته وأن يوفقنا لأسباب فضله ورحمته.

---

٢ ـ ومما يعين على تقوى الله ـ عز وجل ـ: أن يدرب العبد نفسه على المراقبة وأن يستشعر اطلاع الله ـ عز وجل ـ عليه فيستحي عند ذلك من المعصية ويجتهد في الطاعة

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد: ٤).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، والجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم[1].

وقال تعالي: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (هود: ٥).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٠٤)

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ : «بيَّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يخفى عليه شيء، وأن السر كالعلانية عنده، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر وما يعلن وما يسر والآيات المبينة لهذا كثيرة جدًا كقوله تعالى: ﴿ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ ونَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ونَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦)، وقوله جَلَّ وعلا: ﴿واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (البقرة:٢٣٥)، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ومَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (الأعراف:٧).

وقوله تعالى: ﴿ومَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ومَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ ولا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ومَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ ولا فِي السَّمَاءِ﴾ (يونس:٦١)، ولا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها آية بهذا المعنى، ثم قال تحت عنوان:

تنبيه هام:

اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات

الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعلمه خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون، وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلاً ليصير به كالمحسوس فقالوا: لو فرضنا أن ملكًا قتالاً للرجال سفاكًا للدماء، شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلمًا، وسيَّافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط للقتل، والسيف يقطر دمًا، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزاوجه وبناته، فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات الملك، وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلع عليه؟، لا وكلا، بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وَجِلَةً قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة جوارحهم، خوفًا من بطش ذلك الملك.

ولاشك ولله المثل الأعلى أن رب السموات والأرض جَلَّ وعلا أشد علمًا، وأعظم مراقبة، وأشد بطشًا وأعظم

نكالاً، وعقوبة من ذلك الملك، وحماه في أرضه محارمه، فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جَلَّ وعلا ليس بغائب عنه، وأنه مطلع على ما يقول وما يفعل وما ينوي، لانَ قلبه، وخشي الله تعالى، وأحسن عمله لله جَلَّ وعلا»[(١)].

وقد دلت الأحاديث الشريفة على مادلت عليه هذه الآيات الكريمات، من وجود مراقبة الله تعالى، والاستحياء منه حق الحياء، عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«استحيوا من الله حق الحياء، من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وماحوى، وليذكر الموت والبلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»**[(٢)].

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٩, ١٠).

(٢) رواه الترمذي (٩/ ٢٨١) «القيامة»، والحاكم (٤/ ٣٢٣) «الرقاق»، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.

قال المناوى في الفيض: «**استحيوا من الله حق الحياء**»، بترك الشهوات والنهمات، وتحمل المكاره على النفس حتى تصير مدبوغة، فعندها تطهر الأخلاق، وتشرق أنوار السماء في صدر العبد، ويقرر عمله بالله فيعيش غنيًا بالله ما عاش.

قال البيضاوي: ليس حق الحياء من الله ما تحسبونه، بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عما لا يرضاه من قول وفعل.

وقال سفيان بن عيينة: الحياء أخف التقوى، ولا يخاف العبد حتى يستحي، وهل دخل أهل التقوى إلا من الحياء «**من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس**»، أي رأسه «**وما وعى**»: ماجمعه من الحواس الظاهرة والباطنة، وحتى لا يستعملها إلا فيما يحل «**وليحفظ البطن وما حوى**» أي: وما جمعه الجوف باتصاله من القلب والفرج واليدين والرجلين، فإن هذه الأعضاء متصلة بالجوف فلا يستعمل منها شيء في معصية الله، فإن الله ناظر إلى العبد لا يواريه شيء[1].

---

(١) «فيض القدير» (١/ ٤٨٨).

وعن أسامة بن شريك ﷺ عن رسول الله ﷺ : «ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك إذا خلوت»[١].

وعن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء فيجعلها الله هباء منثورًا، أما إنهم إخوانكم، ومن جلدكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»[٢].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات»، فقال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى

---

(١) رواه ابن حبان في «روضة العقلاء» (١٢, ١٣)، والضياء في «المختارة» (١/ ٤٤٩)، قال الألباني: «والإسناد ضعيف»، قال: ثم وجدت للحديث شاهدًا مرسلاً في «جامع ابن وهب» ص(٦٥)، فالحديث به حسن - إن شاء الله - «الصحيحة» (١٠٥٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٤٥) «الزهد»، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم: (٥٠٥).

متبع، وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا»[(١)] .

قال المناوي: قدم السر لأن تقوى الله فيه أعلى درجة من العلن لما يخاف من شوب رؤية الناس، وهذه درجة المراقبة، وخشيته فيهما تمنع من ارتكاب كل منهي، وتحثه على فعل كل مأمور، فإن حصل للعبد غفلة عن ملاحظة خوفه وتقواه فارتكب مخالفة مولاه لجأ إلى التوبة ثم داوم الخشية[(٢)] ، وسُئل النبي ﷺ عن الإحسان في الحديث المسمى بأم السنة فقال ﷺ : **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[(٣)] .

---

(١) رواه البزار رقم (٨)، والعقيلي (ص٣٥٢)، وأبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم»، والسياق له، وأبو نعيم (٢/ ٣٤٣)، وله طرق هو بمجموعها حسن، باختصار من «الصحيحة» (١٨٠٢).

(٢) «فيض القدير» (٣/ ٣٠٧).

(٣) رواه البخاري (١/ ١١٤) «الإيمان»، مسلم (١/ ١٥٧، ١٥٨) «الإيمان»، والترمذي (٨٨١٠/ ٨٨) «الإيمان»، وأبو داود (٤٦٧٠) «السنة»، والنسائي (٨/ ٩٧) «الإيمان».

قـال النووي ـ رحـمـه الله ـ: «هذا من جـوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، لأنا لو قدرنا أن أحدًا قام في عبادة وهو يعاين ربه ـ سبـحانه وتعالى ـ، لم يتـرك شيئًا مما يقـدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السـمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتي به فقال ﷺ اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإن التـتميم المذكـور في حال العيـان إنما كان لعلم العـبد باطلاع الله ـ سبحـانه وتعالى ـ عليه، فلا يقـدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع رؤية العبـد، فينبغي أن يعـمل بمقتضـاه، فمقـصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقـبة العبد ربه ـ تبارك وتعالى ـ في إتمام الخشوع والخـضوع وغير ذلك، وقد ندب أهل الحقائق إلى مـجالسة الصالحين ليكون ذلـك مانعًا من تلبسـه بشيء من النقائص احـترامًا لهم واسـتحـياء منهم، فكيف بمن لا يزال الله مطلعًا عليه في سره وعلانيته»[1].

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١/ ١٥٧-١٥٨).

وقال ابن رجب - رحمه الله -: يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة وهو استحضار قربه، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والهيبة والتعظيم، كما جاء في رواية أبي هريرة: «أن تخشى الله كأنك تراه»، ويوجب أيضًا النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها، وقد وصى النبي ﷺ جماعة من الصحابة بهذه الوصية.

وقوله ﷺ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله تعالى في العبادة واستحضار قربه من عبده حتى كأن العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره فإذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحقق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه، وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شق

عليه أن يعبد الله كأنه يراه فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه فليستحي من نظره إليه، كما قال بعض العارفين: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك. وقال بعضهم: خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي من الله على قدر قربه منك[(١)].

وصفوة الكلام أن يقال: مما يعين على التقوى التدرب على مراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإحساس القلب بقربه وإطلاعه، فيستحي العبد عند ذلك من المعصية، ويبذل جهده في أداء الطاعة على أحسن وجوهها، وهذه بعض الآثار في تقرير هذا المعنى:

ذكر عن أعرابي قال: خرجت في بعض ليالي الظلم فإذا أنا بجارية كأنها علمٌ[(٢)]، فأردتها عن نفسها، فقالت: ويلك أما كان لك زاجرٌ من عقل إذا لم يكن لك ناهٍ عن دين؟ فقلت: إنه والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت: فأين مُكَوكِبُها.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٣٣ـ٣٤) باختصار.

(٢) علم: أي جبل.

وسئل الجنيد: بم يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظر إليه.

وقال الحارث المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل
خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما يخفى عليه يغيب

٣- ومما يعين على التقوى معرفة ما في سبيل الحرام من المفاسد والآلام

فليس في الدنيا والآخرة شرٌ وداءٌ إلا وسببه الذنوب والمعاصي.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

ومـا الذي أخـرج إبليس من ملكوت السـمـاء، وطرده ولعنه ومـسخ ظاهره وباطنه فجُـعلت صورته أقـبح صورة وأشنعـها، وباطنه أقـبح من صورته وأشنع، بُدل بالـقرب بعدًا، وبالرحـمة لعنة، وبالجنة نارًا تلظى، فـهان على الله غاية الهـوان، وسقط من عينه غـاية السقوط، فصـار قَوَّادًا لكل فاسق ومجـرم، رضي لنفسه بالقيادة بعـد تلك العبادة والسيـادة ـ فعيـاذًا بك اللهم من مخالفـة أمرك، وارتكاب نهيك ـ؟

وما الذي أغـرق أهل الأرض كلهم حتى عـلا الماء فوق رؤوس الجبال؟

وما الذي سلط الريح العقيم على قـوم عاد حتى ألقتهم مـوتى على سطح الأرض كـأنهم أعـجـاز نخل خـاوية، ودمـرت ما مـرت عليه مـن ديارهم وحروثهم؟ ومـا الذي أرسل على قـوم ثمود الصـيحـة حـتى قطعت قلوبهم في أجوافـهم وماتوا عن آخرهم؟ وما الذي رفع قـرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهـم ثم قلبها عليهم، فجعل

عاليها سافلها، ثم أتبعهم حجارة من سجيل، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد؟ وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق والأرواح للحرق، وما الذي أهلك القرون من بعد نوح ودمرها تدميرًا؟[1].

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ آثار الذنوب والمعاصي فلتراجع فإنها مفيدة جدًا في الزجر عن معصية الله والمباعدة عنها، وهي التقوى المقصودة والدرة المفقودة، نسأل الله السلامة، ونعوذ بالله من الحسرة والندامة، فحقيق بكل عاقل أن لا يسلك طريقًا حتى يعلم سلامتها وآفاتها، ما توصل إليه من سلامة أو عطب، ولاشك أن سبيل المعاصي فيه من التعرض

---

(١) «الجواب الكافي» باختصار (٤٢-٤٣) دار عمر بن الخطاب.

للعذاب العاجل والآجل، وضيق الصدر والرزق، وبغض الخلق ومحق البركة، فهي كطعام لذيذ مسموم يتمتع به لحظات وتبقى آلامه في الحياة وبعد الممات، كما قال القائل:

تفنى اللذاذة ممن نال لذتها
من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها
لا خير في لذة من بعدها النار

٤ ـ ومما يعين على التقوى أن تتعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك

قال الشيخ مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ: «إذا همت نفسك بالمعصية فذكرها بالله، فإذا لم ترجع فذكرها بأخلاق الرجال، فإذا لم ترجع فذكرها بالفضيحة إذا علم الناس، فإذا لم ترجع فاعلم أنك تلك الساعة انقلبت إلى حيوان»[١].

(١) «علمتني الحياة» (٣٢) نقلاً عن هامش رسالة المسترشدين للمحاسبي (١٦٠) بتحقيق وتعليق عبد الفتاح أبو غدة.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وملاك الأمر كله الرغبة في الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل، والشوق إلى الوصول إليه، وإلى لقائه، فإن لم يكن للعبد همة على ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعد الله فيها لأوليائه، فإن لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك، فخشية النار وما أعد الله فيها لمن عصاه، فإن لم تطاوعه نفسه لشيء من ذلك، فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم، ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه.

فلم يجعل الله طريقًا إلى الجنة غير مخالفته، ولم يجعل للنار طريقًا غير متابعته، قال الله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ (النازعات: ٣٧-٤١)، وقال تعالى: ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾ (الرحمن: ٤٦)، قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله.

وقد أخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن اتباع الهوى يضل عن سبيله، فقال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)[١].

وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هدى من الله أنه أظلم الظالمين، فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠).

❁ وجعل سبحانه المتبع قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول ﷺ، وإما الهوى: فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر[٢].

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: الحذرَ الحذرَ من المعاصي فإنها سيئة العواقب، والحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب

---

(١) «روضة المحبين» (٤٠١-٤٠٢) باختصار.

(٢) المصدر السابق (٤٠٤).

الخلوات، فـإن المبـارزة لله تعـالى تسقط الـعبـد من عـينه سبحانه، ولا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة، فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بهـا، لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علمه بتحريمها، وحذره من عقوبتها، فإن قويت معرفته رأى بعين علمـه قرب الناهي ـ وهو الله ـ فـيتنغص عـيشـه في حال التذاذه، فـإن غلبه سكر الهـوى كان القلب مـتنغصًـا بهذه المراقبـات، وإن كان الطبع في شهوته فـما هي إلا لحظة ثم خزيٌ دائمٌ وندمٌ ملازم وبكاءٌ متـواصل وأسف على ما كان مع طول الزمـان، حتى لو تيـقن العـفو وقف بإزائه حـذر العتـاب. فأفٍ للذنوب! ما أقـبح آثارها؟ وأسوأ أخـبارها؟ ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة[١].

وقـال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: واعلم أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإن الشهوة إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن

---

(١) «صيد الخاطر» (١٢٩) بتصرف.

تضيع وقـتًا إضاعـته حسـرةٌ وندامةٌ، وإما أن تثلم عـرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمـه، وإما أن تذهـب مالاً بقاؤه خير من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا قيامـه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمةً بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة»[1].

* ***وخـلاصـة هـذا الفـصل أن للناس في تـرك المعـاصي والتورع عنها دوافع متعددة:***

* منهم من يدفعه عن المعصيـة محبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإجلاله أن يخالف أمره ويرتكب نهيه، كما قال بعضهم: وددت أن جلدي قرض بالمقارض وأن هؤلاء الخلق أطاعوا الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ، وهذه أعلى مـراتب الخـشيـة وأغلى دوافع التقوى.

* ومن الناس من يدفـعه عن المعصـية الرغـبة في دار القرار وما فيها من نعيم مقيم للأبرار.

---

(١) «الفوائد» (١٨٢-١٨٣) دار الدعوة.

قال النبي ﷺ: **«من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة إلا أن يتوب»**[١].

فالتمتع بالحرام في دار الفناء سبب للحرمان من النعيم المقيم في دار البقاء، فلن يجعل الله من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذا لقي الله - عزَّ وجلَّ -.

قال بعضهم:

أنت في دار شتات ■■■ فتأهب لشتاتك

واجعل الدنيا كيوم ■■■ صُمْتَه عن شهواتك

واجعل الفطر عند الله ■■■ في يوم وفاتك

قال الخطابي: معناه لم يدخل الجنة، لأن الخمر شراب أهل الجنة[٢].

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٣٠)، ومسلم (١٣/ ١٧٣) الأشربة بهذا اللفظ ومالك في «الموطأ» (٢/ ٨٤٦) الأشربة، وأبو داود (٣٦٦٢) الأشربة، والترمذي (٨/ ٤٨) الأشربة، والنسائي (٨/ ٣١٨) الأشربة.

(٢) «جامع الأصول» (٥/ ٩٩).

وقال النووي: معناه أنه يحرم شربها في الجنة وإن دخلها، فإنها من فاخر شراب الجنة فيمنعها هذا العاصي بشربها في الدنيا، وقيل أنه ينسى شهوتها لأن الجنة فيها كل ما يُشتهى، وقيل لا يشتهيها وإن ذكرها ويكون هذا نقص نعيم في حقه تمييزًا بينه وبين تارك شربها[1].

* ومنهم من يتركها خوفًا من النار واتقاء غضب الجبار.

قال بعضهم:

إذا ما هممنا صدنا وازع التُّقى
فولى على أعقابه الهَمُّ خاسئًا

وقال آخر:

لا خير فيمن لا يراقب ربه
عن الهوى ويخافه إيمانًا
حجب التُّقى سبُل الهَوَى فأخو
التُّقَى يخشى إذا وافى المعاد هوانًا

(١) «النووي على صحيح مسلم» (١٣/ ١٧٣).

* ومنهم من يتركها خوف العار والشنار[1] واستبقاء الحياء والوقار، كما قال بعضهم:

ما إن دعاني الهوى لفاحشة ▪▪▪ إلا نهاني الحياء والكرم

فلا إلى فاحش مددت يدي ▪▪▪ ولا مشت بي لريبة قدم

* ومنهم من يترك المعصية لما يعقبها من شرور ومصائب وآلام، كما قال بعضهم:

وكم من معاص نال منهن لذة
ومات فخلاها وذاق الدواهيا

تصرم لذات المعاصي وتنقضي
وتبقى تباعات المعاصي كما هيا

فيا سوءتا والله راء واسمع
لعبد بعين الله يخشى المعاصيا

* ومنهم من يحمله على ترك المعاصي لذة العفة والاستعلاء عن اتباع الهوى، فإن لذلك حلاوة في القلوب

---

(١) الشنار: هو أقبح العيب.

لا يعرفها إلا من ذاقها، كما قال بعضهم:

وإني لمشتاق إلى كل غاية

من المجد يكبو دونها المتطاول

بَذُولٌ لمالي حين يبخل ذو النهى

عفيف عن الفحشاء قرم حلاحل[(١)]

* ومنهم من يتركها لأنها تنافي المروءة والشهامة، كما قال عنترة وهو من شعراء العصر الجاهلي لم يسمع قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (النور: ٣٠).

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها

* ومنهم من يتركها استحياءً من الناس ولا يخشى الله - عزَّ وجلَّ -، وهذه أدنى المراتب، كما قال بعضهم:

لم يكن شأني العفاف ولكن ▪▪▪ كنت خِلاً لزوجها فاستحييت

---

(١) القرم: السيد المعظم، والحلاحل: السيد في عشيرته.

٥- ومما يعين على تقوى الله -عز وجل- معرفة مكائد الشيطان ومصائده والحذر من وساوسه ودسائسه

قال العلامة ابن مفلح المقدسي -رحمه الله-: اعلم أن الشيطان يقف للمؤمنين في سبع عقبات، عقبة الكفر، فإن سلم منه ففي عقبة البدعة، ثم في عقبة فعل الكبائر، ثم في عقبة فعل الصغائر، فإن سلم منه ففي عقبة فعل المبيحات فيشغله بها عن الطاعات، فإن غلبه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، فإن سلم من ذلك وقف له في العقبة السابعة، ولا يسلم منها المؤمن إذ لو سلم منها أحد لسلم منها رسول الله ﷺ وهي تسليط الأعداء الفجرة بأنواع الأذى[1].

---

(١) «مصائب الإنسان من مكائد الشيطان» (٦٩) باختصار، وذكر ابن القيم - رحمه الله - هذه العقبات السبع في تفسير المعوذتين بأطول من ذلك فليراجعه من أراد زيادة التفصيل (٧٣-٧٦).

فـلاشك في أن مـعـرفـة العـقـبات التـي يقف عندها الشيطان، ومـعرفة مـداخله إلى قلب ابن آدم مما يعين على الحذر منه، وأولـى من ذلك بالذكر أن تعرف أن الـشيطان عدو لبني آدم فلا يمكن أن يأمره بخير أو ينهاه عن شر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: ٦)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (النور: ٢١).

قال أبو الفرج بن الجوزي: «إنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم ويقل علـى مقدار يقظتهم وغفلتهم، وجهلهم وعلـمهم، واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحـصن سـور وللسور أبـواب، وفيـه ثلم[1]، وساكنه العـقل، والملائكة تتردد على الحصن، وإلى جـانبه ربض[2] فيـه الهوى، والشياطـين تختلف إلى ذلك الربض

---

(١) جمع ثلمة، وهي موضع الكسر من القدح.

(٢) المكان الذي يؤوى إليه.

من غير مانع، والحارس قائم بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم، فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكِّلَ بحفظه وجميع الثلم، وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة فإن العدو ما يفتر».

قال رجل للحسن البصري: أينام إبليس؟ قال: «لو نام لوجدنا راحة»، وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان، وفيه مرآة صقيلة يتراءى بها صور كل ما يمر به، فأول ما يفعل الشيطان في الربض إكثار الدخان فتسودُّ حيطان الحصن وتصدأ المرآة، وكمال الفكر يرد الدخان، وصقل الذكر يجلو المرآة، وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحرس فيخرج، وربما دخل فعاث[1]، وربما أقام لغفلة الحارس، وربما ركدت الريح

(١) عاث: أي فسد.

الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولا يدري به، وربما جرح الحارس لغفلته وأسر واستُخدِم[١].

واعلم أن أول ما يغوي به الشيطان ابن آدم الوساوس التي يوسوس بها إليه، كما قال تعالى آمرًا بالاستعاذة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ من وساوسه: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾ (الناس).

فإذا غفل القلب عن ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جثم عليه الشيطان وأخذ يوسوس إليه بالذنوب والمعاصي، فإذا ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واستعاذ به انخنس الشيطان وانقبض، وإذا كره ما وسوس به فإن ذلك محض الإيمان، عن أبي هريرة قال: جاء ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه: إنا

(١) «تلبيس إبليس» (٣٧-٣٨) باختصار ـ مكتبة المتنبي.

نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «**ذلك صريح الإيمان**»[(١)].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: الوسوسة هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فتصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويُمنِّي ويشهي وينسي علمه بضررها ويطوي عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب،

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٥٣) الإيمان، قال النووي ـ رحمه الله ـ: معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققًا وانتفت عنه الريبة والشكوك. «النووي على صحيح مسلم» (١/ ١٥٤).

فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (مريم: ٨٣).

أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأذتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة.

فأصل كل معصية وبلاء إنما هي الوسوسة[١].

فمهما كان العبد مشغولاً بالطاعات وذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه لا يكون عند ذلك محلاً للوساوس فإذا غفل عن الذكر والطاعة وسوس إليه الشيطان بالمعاصي، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: إذا غفل القلب ساعة عن ذكر الله جثم عليه الشيطان وأخذ يعده ويمنيه.

---

(١) «تفسير المعوذتين» لابن القيم (٧١) باختصار وتصرف ـ السلفية.

وأختم هذا الفصل بما يستعان به من طاعة الرحمن الرحيم حتى يحفظ العبد نفسه من وساوس الشياطين:

١ ـ الاستعاذة بالله، قال الله تعالى: ﴿ **وإمَّا ينزغنَّك من الشَّيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه سميعٌ عليمٌ** ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

وعن سليمان بن صُرد قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ذهب عنه ما يجد**» الحديث[1].

---

(١) رواه البخاري (١٠/٥١٨-٥١٩) الأدب، ومسلم (١٦/١٦٣) البر والصلة، وأبو داود (٤٧٥٩) الأدب، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: من لطائف الاستعاذة أنها طهارة الفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييب له وهو لتلاوة القرآن وهي استعانة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطن الذي لا يقدر علي منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل ممانعة، ولا يداري بإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن (١/ ٥٠) التفسير.

٢ ـ قراءة المعوذات، فقد قال ﷺ: «**لم يتعوذ الناس بمثلهن**»[١].

٣ ـ قراءة آية الكرسي عند النوم كما في حديث أبي هريرة: «**فمن قرأها عند نومه لا يزال عليه من الله حافظ لا يقربه شيطان**».

٤ ـ قراءة سورة البقرة، قال النبي ﷺ: «**إن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان**»[٢].

٥ ـ خاتمة سورة البقرة، عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[٣].

---

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٥١) الاستعاذة: وأحمد بمعناه (٣/ ٤١٧)، ـ وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٦/ ٦٨) صلاة المسافرين بلفظ: «**إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرا فيه سورة البقرة**»، والترمذي (١١/ ١٠) ثواب القرآن بلفظه.

(٣) رواه البخاري (٩/ ٥٠) فضائل القرآن، ومسلم (٦/ ٩١-٩٢) صلاة المسافرين، والترمذي (١٠/ ١٢) ثواب القرآن، وأبو داود (١٣٨٤) الصلاة.

٦ ـ «لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له، له الملك وله الحمـد وهو على كل شيء قدير» مائة مـرة، من قرأها في يوم كانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي.

٧ ـ كثرة ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٨ ـ الوضوء والصلاة، قال ابن القـيم: وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

٩ ـ إمـساك فـضول النظر والكلام والطعـام ومخـالطة الناس، فـإن الشـيطان إنما يتـسلط علـى ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة[١].



(١) تفسير المعوذتين باختصار (٨٢-٨٦) وانظر: «البحر الرائق» للمصنف.

صفات المتقين

وبعد أن ذكـرنا معنى التقـوى وشرفهـا وطريق الوصول إليها، نرى من المفـيد كذلك أن نتعـرف على أصحاب هذه الرتب العليَّة، والدرجات السَّنيَّة، حـتى لا تدعيها النفوس وهي عارية منها، وقد يكون العلم بها مما يشحذ الهمم في طلبها وبذل نفائس الأنفاس في خطبتها وقرانها.

يقـول ابن القـيم ـ رحـمـه الله ـ: وأمـا السابقـون المقـربون فنسـتغـفـر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حـالهم وعدم الاتصاف به، بل مـا شممنا له رائحة، ولكن مـحبة القوم تحـمل على تعرف منزلـتهم والعلم بهـا، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحـاق بهم، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة:

* منها أن لا يزال المتخلف المسكين مزريًا على نفسه ذامًا لهـا. ومنها أن لا يزال منكسـر القلب بين يدي ربه تعـالى ذليـلاً له حـقيـرًا يشـهـد منازل السـابقين وهو في زمـرة

المنقطعين، ويشهد بضائع التـجار وهو في رفقة المحرومين. ومنها أنه عسـاه أن تنهض همته يومًا إلى التـشبث والتعلق بساقـة القوم ولو من بعـيد. ومنها أنه لعـله أن يصدق في الرغبة واللجأ إلى من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ويهيئه لأعمالهم، فيصادف ساعة إجـابة لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه. ومنهـا أن هذا العلم هو من أشـرف علوم العبـاد، وليس بعـد علم التوحـيد أشـرف منه، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريـفة، ولا يناسب النفوس الدنيئـة المهينة، فإذا رأى نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق إليه وتحبه وتأنس بأقله فليبـشر بالخيـر فقد أُهِّل له، فليـقل لنفسه: يا نفس فـقد حصـل لك شطر فاحـرصي على الشطر الآخر. ومنـها أن العلم بكل حال خـيراً من الجهل. ومنهـا أنه إذا كان العلم بهـذا الشـأن هـمـه ومطلوبه فـلابد أن ينال مـنه بحـسب اسـتـعداده ولو لحظـة ولو بارقة، ولو أنـه يحدث نفـسـه بالنهضة إليه. ومنها أنه لعله يجري منه على لسانه ما ينتفع به غيـره بقصده أو بغـير قصـده والله لا يضيع مثـقال ذرة

فعسى أن يرحم بذلك العالم، وإياك أن تظن أن بمجرد علم هذا الشأن صرت من أهله، هيهات ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى وهو فقير وبين الغني بالفعل، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل، فاسمع الآن وصف القوم وأحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل، فإن وجدت من نفسك حركة وهمة إلى التشبه بهم فاحمد الله وادخل فالطريق واضحٌ والباب مفتوح:

إذا أعجبتك خصال امرئ ▪▪▪ فكنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على الجود والمكرمات ▪▪▪ إذا جئتها حاجب يحجبك[1]

١ ـ فمن صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب إيمانًا جازمًا:

والغيب هو ما غاب عن حواسنا مما أخبرنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بوجوده أو أخبرنا به رسوله ﷺ، كالإيمان بالله وملائكته والإيمان بالآخرة، ولاشك أن هذه الصفة أخص

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٠٥-٢٠٦) باختصار.

صفاتهم، فإنها التي تدعوهم إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والانقياد الكامل لأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونهيه، وهذه الصفة هي أول صفة وصفهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها في كتابه، قال الله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ (البقرة: ٢-٤)، ومدحهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كذلك في هذه الآيات الكريمات بأنهم أهل الهداية الحقيقية بالقرآن.

قال القاسمي: قال الناصر في الانتصاف: الهدى يطلق في القرآن على معنيين:

أحدهما ـ الإرشاد وإيضاح سبيل الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ (فصلت: ١٧)، وعلى هذا يكون الهدى للضال باعتبار أنه رشد إلى الحق سواء حصل له الاهتداء أو لا.

والآخر ـ خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد ومنه: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (الأنعام: ٩٠)، فإذا ثبت

وروده على المعنيين فـهو فـي هذه الآية يحتـمل أن يراد به المعنيان جميعًا.

وعلى الأول فتـخصيص الهدى بالمتـقين للتنويه بمدحهم حتـى يتبين أنهم هم الذين اهتـدوا وانتفـعوا بـه كمـا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ (النازعات: ٤٥)، وقال: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ (يس: ١١)، وقد كـان ﷺ منذرًا لكل الناس، فذكـر هؤلاء لأجل أنهم هم الذين انتـفعوا بإنذاره، وهذه الآية نـظير آية: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[1] (فصلت: ٤٤).

٢ ـ ومن صفاتهم أنهم يعفون ويصفحون:

كـمـا قـال الله تعـالى: ﴿ وَأَن تَعْـفُـوا أَقْـرَبُ لِلتَّـقْـوَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٣٧)، وقد قال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ

---

(١) «محاسن التأويل» (٢/ ٣٤) دار الفكر بيروت.

عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ (الشورى: ٤٠)، فأخبر الله عز وجل أن من اتصف بهذه الصفة فأجره في ذلك على الله عز وجل، كما رغبهم الله عز وجل في مغفرته إذا فعلوا ذلك فقال عز وجل في سورة النور: ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (النور: ٢٢)، وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

قال العلامة محمد رشيد رضا: قال الراغب: الغيظ أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه، وفي روح المعاني: أن الغيظ هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر، والفرق بينه وبين الغضب على ما قيل: أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام البتة، ولا كذلك الغيظ.

وقال الزمخشري: كظم الغيظ هو أن يمسك ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرًا، ويروى عن عائشة أن خادمًا لها غاظها فقالت: «لله در التقوى ما تركت لذي غيظ

شفـاء»، ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، العفـو عن الناس هو التجافي عن ذنب المذنب منهم وترك مؤاخذته مع القدرة عليها، وتلك مرتبة في ضبط النفس والحكم عليها، وكرم المعاملة قل من يتبوأها، فالعـفو مرتبة قبل مرتبة كظم الغيظ، إذ ربما يكظم المرء غيظه على حقد وضغينة.

وهناك مرتبة أعلى منها، وهي مـا أفاده قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، فالإحسان وصف من أوصاف المتقين، ولم يعطفه على ما سـبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة تمييزًا له بكونه محبوبًا عند الله تعالى ويروى أن بعض السلف غاظه غـلام له فجأة غـيظًا شديدًا فهم بـالانتقام مـنه فقال الـغلام: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، فقال: كظمت غيظي، قال الغلام: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (آل عمـران: ١٣٤)، عـفوت عنك، قـال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، اذهـب فأنت حـر لوجه الله، فهذه الواقعة تبين لك ترتيب المراتب الثلاث[1].

---

(١) «تفسير المنار باختصار» (٤/ ١٣٤، ١٣٥).

٣ ـ ومن صفاتهم أنهم غير معصومين من الخطايا إلا من عصمه الله عَزَّ وجَلَّ من الأنبياء غير أنهم لا يقارفون الكبائر، ولا يصرون على الصغائر:

بل كلما وقعوا في صغيرة رجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح، عملاً بقول النبي ﷺ: «**اتبع السيئة الحسنة تمحها**»[1]، ودل على هذه الصفة قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ (الأعراف: ٢٠١).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذي أطاعوه فيما أمر وتركوا ما عنه زجر، أنهم إذا مسهم، أي: أصابهم طيفٌ، وقرأ الآخرون طائف، وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان فقيل: بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب،

---

(١) تقدم تخريجه.

ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهمِّ بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب، وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ (الأعراف: ٢٠١)، أي عقاب الله عَزَّ وجَلَّ، وجزيل ثوابه ووعده ووعيده فتابوا وأنابوا ورجعوا إليه من قريب: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١)، أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه[1].

ثم ذكر الله عَزَّ وجَلَّ ما يقابل هذه الصفة في المتقين بقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٢).

قال العلامة رشيد رضا - رحمه الله -: شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا، وإن زلوا تابوا وأنابوا،

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٧٩).

وأن إخوان الشياطين وهم الجاهلون غير المتقين تتمكن الشياطين من إهوائهم فيمدونهم في غيهم وفسادهم، لأنهم لا يذكرون الله تعالى إذا شعروا في أنفسهم بالنزوع إلى الشر والباطل والفساد في الأرض، ولا يستعيذون منه بالله، وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطانًا من الجن يوسوس إليه ويغريه بالشر، ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم لذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسي والواعظ الديني[1].

٤ـ ومن صفاتهم أنهم يتحرون الصدق فهم أصدق الناس إيمانًا وأصدقهم أقوالاً وأعمالاً، وهم الذين صدقوا المرسلين:

قال تعالى: ﴿ والَّذي جاء بالصِّدْق وصدَّق به أُوْلَئكَ هُمُ الْمُتَّقُون ﴾ (الزمر: ٣٣)، قيل الذي جاء بالصدق هو محمد

(١) «تفسير المنار» (٩/ ٥٥٠) بتصرف.

ﷺ: وقيل: جبريل عليه السلام، وقال مجاهد: أصحاب القرآن المؤمنون، يجيئون يوم القيامة فيقولون: هذا ما أعطيتمونا فعلمنا بما أمرتمونا.

قال ابن كثير: وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله[٢]، وقال تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٧٧).

قال القاسمي: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا**﴾ (البقرة: ١٧٧)، في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فلم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال، وفيه إشعار بأن من

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٣).

لم يفعل أفعـالهم لم يصدق في دعواه الإيمان ﴿وأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧)، عن الكفر وسائر الرذائل، وتكرير الإشارة لـزيادة تنويه بشأنهم، وتوسـيط الضمـير لـلإشارة لانحصـار التقوى فـيهم[١]، وقد رغب النبي ﷺ في هذه الخصلة النبيلة والرتبـة الجليلة فقال ﷺ : **«وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»**[٢].

٥ ـ ومن صفاتهم أنهم يعظمون شعائر الله:

قال الله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ (الحج: ٣٢).

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : قوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ** ﴾ (الحج:٣٢)، الشعائر جمع شـعيرة وهي كل شيء لله

---

(١) تفسير القاسمي (٣/ ٥٤).

(٢) رواه البـخـاري (١٠/ ٥٠٧) «الأدب»، ومـسـلم (١٦/ ١٦٠) «البـر والصلة»، وأبو داود (٤٩٦٨) «الأدب»، وابن ماجـه (٤٦) «المقدمة» بزيادة في أوله، واللفظ لمسلم.

تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم، ومنه شعار القوم في الحرب، أي: علامتهم التي يتعارفون بها، ومنه إشعار البدنة وهو الطعن في جانبها الأيمن فيسيل الدم فيكون علامة، فهي تسمى شعيرة بمعنى المشعورة، فشعائر الإسلام أعلام دينه، ولاسيما ما يتعلق بالمناسك، وقال قوم: المراد هنا تسمية البدن والاهتمام بأمرها، والمغالاة بها قاله ابن عابس ومجاهد وجماعة، وفيه إشارة لطيفة، وذلك أن أصل شراء البدن ربما يحمل على فعل ما لابد منه فلا يدل على الإخلاص، فإذا عظمها مع حصول الإجزاء بما دونها فلا يظهر له علم إلا تعظيم الشرع وهو من تقوى القلوب والله أعلم.

وأضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب، ولهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**التقوى هاهنا**» وأشار إلى صدره[1].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٤٤٨)، باختصار، والحديث رواه مسلم (١٦/ ١٢٠، ١٢١) «البر والصلة، والترمذي (٨/ ١١٥) «البر»، وأحمد (٢٧٧٠٢).

فالمتـقون يعظمـون طاعة الله وأمره فـيدفـعهم ذلك إلى طاعته، ويعظمون كذلك ما نهى الله عنه فيدفعهم ذلك عن معـصيتـه، وعكس ذلك الاستهـانة بالأوامر فـلا يؤديها، وبالنواهي فيقع فيها نسأل الله السلامة.

قـال أنس رضي الله عنه: «إنكم لتـعـملون أعـمـالا هي أدقّ في أعينكم من الشـعر، كنا لنعهدها على عـهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[1].

قال أبو عبد الله: يعني بذلك المهلكات، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قـاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفـاجر يرى ذنوبه كذباب مـر على أنفه فقال به هكذا»[2].

قـال العـيني: «السبب فيـه أن قلب المؤمن منور فإذا رأى من نفسـه ما يخالف ذلك عظم الأمر عليـه، والحكمة في

(١) رواه البخاري (١١/ ٣٢٩) «الرقاق».
(٢) رواه البخـاري (١١/ ١٠٢) «الدعوات»، الترمذي (٩/ ٣٠٨) «صـفة القيامة».

التمثيل بالجبل، أن غيره من المهلكات قد يحصل منه النجاة بخلاق الجبل إذا سقط عليه فإنه لا ينجو عادةً»[(١)].

٦ ـ ومن صفاتهم أنهم يتحرون العدل ويحكمون به ولا يحملهم بغض أحد على تركه:

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٨).

قال الزمخشري: لا يحملنكم بغض المشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٨)، نهاهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدًا وتشديدًا، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله: ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٨)،

---

(١) نقلاً عن هامش «جامع الأصول» (١١/ ٥٠٨).

لكونه لطفًا فيـها، وفيه تنبيـه عظيم على وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهـذه الصفة من القوة، فــمـا الظن بـوجـوبه مع المـؤمنين الذين هم أوليـاؤه، وأحباؤه[1].

وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نحلاً، فقالت أمي: لا أرضى حـتى تشهد عليه رسول الله ﷺ فجاءه ليشهـده على صدقتي، فقال: **«أكُلَّ ولدك نحلت مـثله؟»**، قال: «لا»، فـقال: **«اتقـوا الله واعـدلوا بين أولادكم»**، وقال: **«إني لا أشهد على جور»**، قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة[2].

٧ ـ ومن صفاتهم أنهم يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ﷺ:

قال الله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

---

(١) «تفسير الكاشف» (١/ ٦١٢/ ٦١٣) باختصار.

(٢) رواه البخـاري (٥/ ٢١١) «الهبـة» (٥/ ٢٥٨) «الشهـادات»، ومسلم (١١/ ٦٧) «الهبة».

الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:١١٩)، وقد فسر بعض العلماء هذه الآية على أنها تحريض على الصدق وأمر به كابن كثير والقاسمي، ورجح بعضهم أنها حض على التزام طريق الصادقين كالشوكاني، ونقل عن سعيد بن جبير والضحاك: «كونوا مع الصادقين»، وأبو بكر وعمر، وذكر القرطبي وابن جرير القولين.

ورجح ابن جرير الثاني منهما فقال: «والصحيح من التأويل في ذلك هو التأويل الذي ذكرناه عن نافع[1]، والضحاك، وذلك أن رسوم المصحف كلها مجمعة على ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وهي القراءة التي لا أستجيز لأحد القراءة بخلافها، وتأويل عبد الله - رحمة الله عليه -[2] في ذلك على قراءته تأويل صحيح غير أن القراءة بخلافها[3]».

---

(١) الأثر عن نافع قال: قيل للثلاثة الذين خلفوا: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» محمد وأصحابه.

(٢) قال ابن جرير: وكان ابن مسعود فيما ذكر عنه يقرؤه «وكونوا من الصادقين»، ويتأوله أن ذلك نهي من الله عن الكذب.

(٣) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١١/ ٤٦) دار المعرفة بيروت.

وقال القرطبي: هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين، واختلف في المراد هنا بالمؤمنين الصادقين على أقوال فقيل هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب، وقيل ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩)، أي: مع الذين خرجوا مع النبي ﷺ لا مع المنافقين، أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم، وقيل هم المهاجرون لقول أبي بكر يوم السقيفة: إن الله سمانا الصادقين فقال: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾، الآية ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ ﴾ الآية، وقيل: «هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم».

قال ابن العربي: وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى، فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في العمل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر

وعمر وعثمان، ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم، وأما تفسير أبي بكر فهو الذي يعم الأقوال كلها فإن جميع الصفات فيهم موجودة[١].

فلا شك أن من صفات المتقين أنهم ينتهجون منهج الصحابة ﷺ لأنهم أولى الناس بهذه الصفة التي أمرنا الله أن نكون مع أهلها، فقد شهد الله عَزَّ وجَلَّ لهم بالصدق، وشهد لهم رسوله ﷺ، فلا يجوز لأحد أن يلمزهم بشيء، أو يتهمهم بما برأهم الله عَزَّ وجَلَّ ورسوله ﷺ، فالصحابة كلهم عدول، وظهرت فيهم من علامات الصدق والإيمان واليقين، ما يجعل العاقل يقطع بتعديلهم، فمن تقوى الله عَزَّ وجَلَّ، موالاتهم ومحبتهم ونصرتهم، والاحتجاج بإجماعهم، وفهم الكتاب والسنة على منهجهم وطريقتهم، وبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/٣١٢٨) باختصار.

المتقون يدعون ما لا بأس به حذرًا مما به بأس ويتقون الشبهات

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر»[(١)].

قال الحافظ: المراد بالتقوى وقاية النفس عن الشرك والأعمال السيئة والمواظبة على الأعمال الصالحة، وقوله «حاك» أي: تردد فيه إشارة إلى أن بعض المؤمنين بلغ كنه الإيمان وحقيقته، وبعضهم لم يبلغ، وقد أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن أبي الدرداء قال: «تمام التقوى أن تتقي الله حتى تترك ما ترى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به (١/ ٤٥) «الإيمان»، وروى الترمذي (٩/ ٢٧٨) «صفة القيامة»، وابن ماجه (٤٢١٥) «الزهد»، والحاكم (٤/ ٣١٩)، عن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما بأس به**»، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وصحح إسناده الحاكم والذهبي وضعفه الألباني، وانظر «بلوغ المرام» (١٧٨).

(٢) فتح الباري» (١/ ٤٨) باختصار.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «دع ما يريبك إلى مالا يريبك»[(١)]، ومـعنى ذلك أنهم يتـركون كل مـا يشكون في حله؛ فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه شك، وإنما تسكن إليـه النفس، ويشبـه هذه الحديث كـذلك قوله ﷺ: «**إن الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**»[(٢)]، فالمتـقون يتورعـون عن الشبهات وعـما يرتابون فيـه مما ليس حلالاً

(١) رواه النسائـي (٨/ ٢٣٠) «آداب القضاء»، وقـال أبو عبـد الرحمن: هذا الحديث جيد وقال الألباني: صحيح الإسناد موقوف، يعني على عبد الله بن مسعود ﷺ وقـد روي هذا الحديث مرفوعًا عن الحسن بن علي بن أبي طالب خرجـه أحمد والتـرمذي، والنسائي وابن حـبان والحاكم وصححه التـرمذي، وهو في «جامع العلوم» الحديث الحادي عشر. وانظر كلام ابن رجب ـ رحمه الله ـ (١٠١, ١٠٢).

(٢) رواه البـخـاري (١/ ١٢٦) «الإيمان»، ومـسـلم (٢٧١١) «المسـاقـاة والمزارعة»، وأبو داود (٢٣١٣) «البيوع»، والترمذي (٥/ ١٨٩, ١٩٩) «البيـوع»، وابن مـاجـه (٣٩٨٤) «الفتن»، والدارمي (٢/ ٢٤٥)، وأحمد (٤/ ٢٦٩).

بينًا، وذلك أدعى أن يتورعوا عن الحرام البيّن، ومن اجترأ على الشبهة، اجترأ كذلك على الحرام، ففي رواية الصحيحين: **«فمن ترك ما يشتبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك»**، يعني: أن من ترك الإثم مع اشتباهه عليه فهو أولى بتركه إذا استبان أنه إثم.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: وههنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع، فأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبهة فإنه لا يحتمل له ذلك بل ينكر عليه، كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: «يسألونني عن دم البعوض، وقد قتلوا الحسين»، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«هما ريحانتاي من الدنيا»**[(١)].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٩٥) «فضائل الصحابة»، والترمذي (١٣/ ١٩٣) «المناقب»، قال ابن الأثير: «الريحان والريحانة» «الرزق والراحة»، ويسمى الولد ريحانًا وريحانة لذلك.

وسأل رجلٌ بشر بن الحارث عن رجل له زوجة وأمه تأمره بطلاقها: فقال: إن كان برَّ أمه في كل شيء ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فليفعل، وإن كان يبرها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل.

وسُئل الإمام أحمد عن رجل يشتري بقلاً ويشترط الخوصة ـ يعني التي تربط بها حزمة البقل ـ، فقال أحمد: «إيش هذه المسألة؟»، قيل: «إن إبراهيم بن أبي نعيم يفعل ذلك»، فقال أحمد: «إن كان إبراهيم بن أبي نعيم فنعم، هذا يشبه ذاك»، إنما أنكر هذه المسألة ممن لا يشبه حاله، وأما أهل التدقيق في الورع فيشبه حالهم هذا، وقد كان الإمام أحمد نفسه يستعمل في نفسه هذه الورع، فإنه أمر من يشترى له سمنًا فجاء به على ورقة فأمر برد الورقة إلى البائع[1].

(١) «جامع العلوم والحكم» (١٠٣، ١٠٤) باختصار.

ثمرات التقوىٰ

ونختم هذا البحث المعطار بذكر ثمـرات التقوى العاجلة والآجلة نسأل الله سعادة الأولى والآخرة فالتقوى هي أعظم سبب للسـعادة في الدنيـا والآخرة، بل لا سعـادة بدونها، لأن مدار التـقوى على معرفـة الله عَزَّ وجَلَّ معرفـة تشغل العبد بطاعته وذكره وشكره، وهذه من سعادة النفوس، وما يتـرتب على ذلك من مـحـبة الله عَـزَّ وجَلَّ، والرضـا به وحسن التوكل عليه سعادة أعظم من السعادة الأولى.

فالمتـقون يسعـدون بالطاعة وثمارها في الدنيـا، وشاهد هذه السعادة في نفس العبد أنه إذا وقع في مـعصية الله عَزَّ وجَلَّ، لضعف وازع التقوى كم يجد من حرج في صدره، وضـيق ووحـشـة بينه وبين الله عَـزَّ وجَلَّ وبين عـبـاد الله المؤمنين، فلو حُصِّلَتْ له الدنيـا بحذافيرها لم تـعوضه هذه الوحشة.

يقول ابن القيم - رحمه الله - واصفًا من ذاق شيئًا من سعادة التقوى ثم حُرم ذلك: «ومن ذاق شيئًا من ذلك طريقًا موصلة

إلى الله عَزَّ وجَلَّ ثم تركها وأقبل على إرادته وراحاته وشهواته ولذاته وقع في آثار المعاطب، وأودع قلبه سجون المضايق، وعذب في حياته عذابًا لم يُعذَب به أحد من العالمين، فحياته عجز، وغم وحزن، وموته كدر وحسرة، ومعاده أسف وندامة، قد فرط عليه أمره وشتت عليه شمله، وأحضر نفسه الغموم والأحزان، فلا لذة الجاهلين، ولا راحة العارفين، يستغيث فلا يُغاث، ويشتكي فلا يُشكى، فقد ترحلت أفراحه وسروره مدبرة، وأقبلت آلامه وأحزانه وحسراته، فقد أبدل الله بأنسه وحشة، وبعزه ذلاً، وبغناه فقرًا، وبجمعيته تشتتًا، وأبعدوه فلم يظفر بقربهم، وأبدلوه مكان الأنس إيحاشًا، ذلك بأنه عرف طريقه إلى الله ثم تركها وناكب عنها مكبًا على وجهه، فأبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر وأقبل ثم أدبر، ودُعي فما أجاب وفتح له فولى ظهره للباب، وقد ترك طريق مولاه، وأقبل بكليته على هواه، فلو نال بعض حظوظه وتلذذ براحاته

وشئـونه فهو مقـيد القلب عن انطلاقه فـي فسيح التوحـيد وميـادين الأنس ورياض المحبة، وموائد القـرب، قد انحط بسبب إعـراضه عن إلهه الحق إلى أسفل سـافلين، وحصل في عـداد الهـالكين، فنار الحـجاب تـطلع كل وقت على فؤاده، وإعراض الكون عنه إذا أعرض عنه مولاه حائل بينه وبين مراده»[٢].

إلى آخر مـا ذكره ـ رحمـه الله ـ فلا تستطل مـا ذكرناه والله يعصـمنا من الزلل ويمن علينا بصالح القـول والعمل، وكمـا رزقنا محبـة الصالحين نسأله تعـالى أن يرزقنا سلوك طريقهم وذوق حلاوة مواجيدهم، ونعوذ به من السلب بعد العطاء، ومن الحور بعـد الكور، وفي حدائق التـقوى ننزه قلوبنا وجـوارحنا برؤية ثمرات التـقوى وبشـارات المتقين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) «طريق الهجرتين» (١٨٠) السلفية.

ثمرات التقوى العاجلة

١ - المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق: ٢، ٣).

عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، وقيل: «المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه، قاله علي بن صالح»، وقال الربيع بن خثيم: «يجعل له مخرجًا: من كل شيء ضاق على الناس»، وقال سهل بن عبد الله: ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجًا من عقوبة أهل البدع ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب.

قيل: ومن يتق الله في الرزق بقطع العلائق يجعل له مخرجًا بالكفاية، وقال عمر بن عثمان الصدفي: ومن يتق فيقف عند حدوده ويتجنب معاصيه يخرجه من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة،

ويرزقه من حيث لا يحتسب من حيث لا يرجو، وقال ابن عيينة: «هو البركة في الرزق»، وقال أبو سعيد الخدري: «ومن يبرأ من حوله وقوته بالرجوع إلى الله يجعل له مخرجًا مما كلفه بالمعونة له»[١].

٢ - السهولة واليسر في كل أمر:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٤)، قال مقاتل: «ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرًا في توفيقه للطاعة»[٢].

قال سيد قطب - رحمه الله -: واليسر في الأمر غاية ما يرجوه الإنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده فلا عنت ولا مشقة، ولا عسر، ولا ضيقة، يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره، وينالها بيسر

(١) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٦٦٣٨، ٦٦٣٩).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٦٦٤٤).

في حركته وعمله، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها، ويعيش من هذا، في يسر رخيٍّ نديٍّ حتى يلقى الله[١].

٣ـ تيسير تعلم العلم النافع:

قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

قال العلامة محمد رشيد رضا: أي: اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك، وهو سبحانه العليم بكل شيء، فإذا شرع شيئًا فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن تبع شرعه، وكرر لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير[٢].

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٦٠٢).

(٢) استدل الصوفية بهذه الآية الكريمة على ما يزعمون بحصول العلم اللدني، وأن ما يأتونه من رياضات وأوراد يكفي في حصول ذلك =

وقال البيضاوي: كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث لاستقلالها، فالأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم بشأنه، ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية.

٤ ـ إطلاق نور البصيرة:

قال الله تعالى: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ (الأنفال: ٢٩).

= العلم دون أن يأخذوا بأسباب العلم من طلبه وتعلمه، وقد قال النبي ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم**»، ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به وسيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ، ويقولون فخرًا: «أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت»، ويقول بعضهم: «أنتم تأخذون عن عبد الرزاق ونحن نأخذ عن الواحد الخلاق»، وهذا لاشك فيه من جهلهم بالدين وفتح أبواب الشياطين، فيدعي من شاء ما يشاء ويقول: «حدثني قلبي عن ربي»، ولاشك أن من يوحى إليه بتكاليف شرعية يثبت له بذلك مرتبة النبوة، ورسولنا ﷺ خاتم النبيين، ولفظ الآية لا يساعدهم على دعواهم، فلم يقل الله عز وجل: واتقوا الله يعلمكم الله، وإلا كان مفيدًا لما قالوه، والعطف يقتضي المغايرة، والصحيح أنه يقال: ييسر الله عزّ وجلّ للعبد أسباب التعلم إذا اتقى الله عزّ وجلّ، ويدل على ذلك أثر «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» ومما يوضح ذلك الثمرة الرابعة.

قال العلامة محمد رشيد رضا: الفرقان في اللغة هو الصبح الذي يفرق بين الليل والنهار، ويسمى القرآن فرقانًا لأنه فرق بين الحق والباطل، وتقوى الله في الأمور كلها تعطي صاحبها نورًا يفرق به بين دقائق الشبهات التي لا يعلمهن كثير من الناس، فهي تفيده علمًا خاصًا لم يكن ليهتدي إليه لولاها، وهذا العلم هو غير العلم الذي يتوقف على التلقين كالشرع أصوله وفروعه، وهو ما لا تتحقق التقوى بدونه، لأنها عبارة عن العمل فعلاً وتركًا بعلم، فالعلم الذي هو أصل التقوى وسببها لا يكون إلا بالتعلم كما ورد في الحديث: «**العلم بالتعلم**»[1].

وإذا علمت أن التقوى عمل يتوقف على علم، وأن هذا العلم لابد أن يؤخذ بالتعلم والتلقي، وأن العمل بالعلم من

---

(١) قال الحافظ: «إنما العلم بالتعلم»، هو حديث مرفوع أيضًا أورده ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية ـ ثم ذكره ـ وإسناده حسن إلا أن فيه مبهمًا اعتضد بمجيئه من وجه آخر «فتح الباري» (١١/ ١٦١)، وقال الألباني: «رواه الخطيب في تاريخه (٩/ ٢٧) عن أبي هريرة مرفوعًا»، وحسنه، وانظر «الصحيحة» رقم (٣٤٢).

أسباب المزيد فيه، وخروجه من مضيق الإبهام والإجمال إلى فضاء الجلاء والتفصيل، فـهمت المراد بالفرقان على عمومه، وعلمت أن أدعـياء التـصوف الجـاهلين لا حظ لهم من ذلك العلم الأول، ولا من هذه التقوى التي هي أثره، ولا من هذا العلم الأخير الذي هو أثر العلم والتقوى جميعًا"[1].

٥ ـ محبة الله عَزَّ وجَلَّ ومحبة ملائكته والقبول في الأرض:

قال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ٧٦)، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل** عليه السلام**، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[2].

---

(١) باختصار وتصرف من «تفسير المنار» (٣/ ١٢٩، ١٣١).

(٢) البخاري (١٠/ ٤٦١) «الأدب»، ورواه مسلم (١٦/ ١٨٣، ١٨٤) «البر والصلة»، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٩٥٣) «الشعر».

وكتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن خالد: «سلام عليك أما بعد، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله حببه إلى عباده»، وعن هرم بن حيان قال: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل بقلوب المؤمنين عليه حتى يرزقهم مودته.

فقد وعد الله عَزَّ وجَلَّ عباده المؤمنين الذين يداومون على الأعمال الصالحة بهذه المودة والمحبة كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (مريم: ٩٦).

٦ ـ نصرة الله عَزَّ وجَلَّ وتأييده وتسديده:

وهي المعية المقصودة بقول الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٤)، فهذه المعية هي معية التأييد والنصرة والتسديد، وهي معية الله عَزَّ وجَلَّ لأنبيائه وأوليائه ومعيته للمتقين والصابرين.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: وهذه المعية الخاصة بالمتقين غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا

كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤)، وقوله: ﴿وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (النساء: ١٠٨)، فإن المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة كما قال تعالى لموسى عليه السلام وهارون: ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[1] (طه: ٤٦).

والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة الله عَزَّ وجَلَّ، وأما الخاصة فتستوجب من العبد الأنس بالله عَزَّ وجَلَّ والثقة بنصره وتأييده.

قال قتادة: ومن يتق الله يكن معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، وكتب بعض السلف إلى أخيه: «أما بعد؛ إن كان الله معك فمن تخاف وإن كان عليك فمن ترجو».

---

(١) «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس» (٤١).

٧ . البركات من السماء إلى الأرض:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

قال القاسمي . رحمه الله . : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ﴾ أي: القرى المهلكة ﴿ آمَنُوا ﴾ أي: بالله ورسلهم، ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ أي: الكفر والمعاصي، ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء وبعضها من الأرض[1].

ويدل على هذا المعنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ (الجن: ١٦).

يقول ابن القيم . رحمه الله . : فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والخونة والفجرة، يخرج عبداً من عباده

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ٢٢١) باختصار.

من أهل بيت نبيه ﷺ فيملأ الأرض قسطًا كما ملأت جورًا، ويقتل المسيحُ اليهود َوالنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركتها، وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون من الرمانة ويستظلون بقحفتها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير، ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس، وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر[١].

فانظر إلى بركات التقوى، واعلم أن ما نحن فيه من قلة البركة ونقص الثمار، وكثرة الآفات والأمراض إنما هو نتيجة حتمية لضعف وازع التقوى وكثرة المعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

---

(١) «الجواب الكافي» (٦٧) باختصار دار عمر بن الخطاب.

٨ ـ البشرى وهي الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم:

قـال تعـالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللَّهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْـهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ (يونس: ٦٢، ٦٤).

قال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: والبشرى في الدنيا ما بشر به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبي ﷺ: **«هي الرويا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»**[١]، وعنه ﷺ: **«ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»**[٢].

وقيل هي محبة الناس له والذكر الحسن، وعن أبي ذر قـال: قلت لرسـول الله ﷺ: «الرجـل يعـمل العـمل لله

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ١٢٨)، أبواب الرؤيا، وقـال: «هـذا حـديث حسن»، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٢٥٨) «الرؤيا»، والحاكم (٤/ ٣٩١) «الرؤيا» وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (١٢/ ٣٧٥) «التعبير»، والترمذي (٩/ ١٢٧) أبواب الرؤيا عن أنس.

ويحبه الناس»، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمنين»[١]، وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿ تتنزَّلُ عليهم الملائكة ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنَّة ﴾ (فصلت: ٣٠)، وأما البشرى في الآخرة فتلقي الملائكة إياهم مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وما يقرءون منها وغير ذلك من البشارات[٢].

٩ ـ الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى: ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا إنَّ الله بما يعملون محيطٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

---

(١) رواه مسلم (١٦/ ١٨٩) «البر والصلة»، وأحمد (٥/ ٢٥٦-١٥٧، ١٦٨)، وعن ابن ماجه (٤٢٢٥) «الزهد»، وقال العلماء: «معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير، وهي الدليل على رضاء الله تعالى، ومحبته له، فيحببه إلى الخلق ـ كما سبق في الحديث ـ ثم يوضع له القبول في الأرض، هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لمحامدهم وإلا فالتعرض مذموم. «شرح النووي علي صحيح مسلم» (١٦/ ١٨٩).

(٢) «الكشاف» (٢/ ٣٥٦) باختصار.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: يرشدهم إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[(١)].

وقال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: وإن تصبروا على عداوتهم وتتقوا ما نهيتم عنه من موالاتهم، وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه، وتتقوا الله في اجتناب محارمه، وكنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم، وهذا تعليم من الله، وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقد قال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما، محيط ففاعل بكم ما أنتم أهله[(٢)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٢٩).

(٢) «الكشاف» (١/ ٤٠٨).

١٠ ـ حفظ الذرية الضعاف بعناية الله عزَّ وجلَّ:

قال الله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ (النساء: ٩).

قال القاسمي ـ رحمه الله ـ: وفي الآية إشارة إلى إرشاد الآباء الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بالتقوى في سائر شؤونهم حتى تحفظ أبناؤهم وتُغاث بالعناية منه تعالى.

ويكون في إشعارها، تهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأن الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف كما في الآية: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ (الكهف: ٨٢)، فإن الغلامين حفظا ببركة صلاح أبيهما في أنفسهما ومالهما[١].

---

(١) «محاسن التأويل» (٥/ ٤٧).

قال محمد بن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح، ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها، والدويرات التي حولها فما يزالون في حفظ الله وستره.

وقال ابن المسيب لابنه: يا بني إني لأزيد في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ، وتلا هذه الآية: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ (الكهف: ٨٢).

١١ - سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧).

قال الزمخشري - رحمه الله -: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده لأخيه بالقتل قال له: إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوي لا من قبلي، فلم تقتلني، ومالك لا تعاقب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول، فأجابه

بكلام حكيم جامع لمعاني الخير، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق، فما أنعاه أكثر العاملين أعمالهم.

وعن عامر بن عبد الله أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له: ما يبكيك فقد كنت وكنت؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

وقال الغزالي ـ رحمه الله ـ: تأمل أصلاً واحدًا وهو أنه هب أنك قد تعبت جميع عمرك في العبادة، وكابدت حتى حصل لك ما تمنيت، أليس الشأن كله في القبول، ولقد علمت أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فرجع الأمر كله إلى التقوى[2].

وقال بعض السلف: لو أعلم أن الله يقبل مني سجدة بالليل وسجدة بالنهار، لطرت شوقًا إلى الموت، إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) «الكشاف» (١/ ٦٢٤).

(٢) «منهاج العابدين» (٧٢).

١٢ ـ سبب النجاة من عذاب الدنيا:

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (فصلت: ١٧-١٨).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو العالية وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن زيد: بيَّنا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾؛ أي بعثنا عليهم صيحة ورجفة وذلاً وعذابًا ونكالاً ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾؛ أي من التكذيب والجحود، ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾؛ أي من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم وتقواهم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ[1].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٩٥).

١٣ ـ ما يجعله الله لهم من الشرف وهيبة الخلق وحلاوة المعرفة والإيمان:

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: ومنها (أي: مما يرغب في شرف الآخرة) وليس هو في قدرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته ما يعوض الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يفنى من المال والشرف مما يجعله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى وهيبة الخلق لهم في الظاهر، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا ولا أهل الرياسات والحرص على الشرف.

كان حجاج بن أرطاة يقول: قتلني حب الشرف، فقال له سوار لو اتقيت الله شرفت، وفي هذا المعنى قيل:

ألا إنَّما التَّقوى هي العزُّ والكرمُ
وحُبُّك للدنيا هو الذُّلُّ والسَّقمُ
وليس على عبدٍ تقي نقيصةٌ إذا
حقَّق التقوى وإن حاك أو حجم

وقال صالح الباجي: الطاعة إمرة، والمطيع لله أمير مؤمر على الأمراء، ألا ترى هيبته في صدورهم إن قال قبلوا، وإن أمر أطاعوا، ثم يقول: يحق لمن أحسن خدمتك ومننت عليه بمحبتك أن تذلل له الجبابرة حتى يهابوه لهيبته في صدورهم من هيبتك في قلبه، وكل الخير من عندك بأوليائك.

وقال ذو النون المصري: من أكرم وأعز ممن انقطع إلى من ملك الأشياء بيده .. وكان مالك بن أنس يهاب أن يسأل حتى قال فيه القائل:

يدعُ الجواب ولا يُرجعُ هيبةً
والسَّائلون نواكس الأذقان

نُورُ الوقار وعزُّ سلطان التُّقى
فهو المهيب وليس ذا سُلطان[1]

---

(١) باختصار من شرح حديث: «ماذئبان جائعان» لابن رجب الحنبلي (٢١-٢٢) ـ دار الفتح.

١٤ ـ الذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين:

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم وكيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين وهذا من جواهر الكلام وأدلّه على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير رضي الله عنهم.

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى الروح لا تقوى الجوارح.

فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع

سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله[١].

فالأعمال تتفاضل بحسب ما في قلوب أصحابها من إيمان وتقوى لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإن الرجلين ليكونان في صف واحد وخلف إمام واحد يكبران بتكبيره ويسلمان بتسليمه وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وكم من قائم محروم، وكم من نائم مرحوم، هذا قام وقلبه فاجر وهذا نام وقلبه عامر.

فالسير سير القلوب والسبق سبق الهمم..

من لي بمثل سيرك المُدَلَّل

تسير رُوَيداً وتجيءُ في الأوَّلِ



---

(١) «الفوائد» (١٨٦/ ١٨٧) لابن القيم باختصار.

الثمرات الآجلة

١ ـ تكفير السيئات وهو سبب النجاة من النار، وعظم الأجر وهو سبب الفوز بدرجات الجنة:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ (الطلاق: ٥).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: أي يذهب عنهم المحظور، ويجزل لهم الثواب على العمل اليسير[١].

وقال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: ومن يخف الله فيتقه باجتناب معاصيه وأداء فرائضه يمحو الله عنه ذنوبه وسيئات أعماله، ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾؛ يقول: ويجزل له الثواب على عمله ذلك وتقواه، ومن إعظامه له الأجر أن يدخله جنته فيخلده فيها[٢].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٨٢).
(٢) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١٢/ ٩٣).

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ (المائدة: ٦٥)، ولا يصدر عن النار بعد ورودها إلا المتقون، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (مريم: ٧١-٧٢).

٢ ـ عز الفوقية فوق الخلق يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (البقرة: ٢١٢).

قال القاسمي ـ رحمه الله ـ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حتى بدلوا النعمة، ﴿ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ لحضورها فألهتهم عن رغائب الآخرة.

قال الحرالي: ففي ضمنه إشعار بأن استحسان بهجة الدنيا كفر ما، من حيث إن نظر العقل والإيمان يبصر طيتها ويشهر جيفتها، فلا يغتر بزينتها وهي آفة الخلق في

انقطاعهم عن الحق، فأبهم تعالى المزين في هذه الآية ليشمل أدنى التزيين الواقع على لسان الشيطان. وأخفى التزيين الذي يكون من استدراج الله، كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

قوله: ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي: يهزأون ﴿ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ (المطففين: ٢٩-٣٦).

﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ وهم المؤمنون وإنما ذكروا بعنوان التقوى لحضهم عليها، وإيذانًا بترتيب الحكم عليها، ﴿ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ لأنهم في عليين وهم في أسفل سافلين، أو لأنهم يتطاولون عليهم في الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ (المطففين: ٣٤-٣٥).

ولذا قال الرَّاغب: يحتمل قوله تعالى: ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وجهين:

أحدهما: أن حال المؤمنين في الآخرة أعلى من حال الكفار في الدنيا.

والثاني: أن المؤمنين في الآخرة في الغرفات، والكفار في الدرك الأسفل من النار[1] انتهى.

٣ ـ ميراث الجنة فهم أحق بها وأهلها، بل ما أعد الله الجنة إلا لأصحاب هذه الرّتبة العلية والجوهرة البهية:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ (مريم:٦٣)، فهم الورثة الشرعيون لجنة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

قال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: ﴿نُورِثُ﴾ وقرئ ﴿نُوَرِّثُ﴾ استعارة أي: نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورث، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقطعت أعمالهم وثمراتها باقية وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد

(١) «محاسن التأويل» (٣/ ١٨٢-١٨٥) باختصار.

أورثهم من تقواهم كما يورث المال من المتوفَّى، وقيل أورثوا من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا[1]. وقال تعالى: ﴿وجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمواتُ والأَرْضُ أُعدَّتْ للْمُتَّقين﴾ (آل عمران: ١٣٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ للْمُتَّقين عِندَ رَبِّهِمْ جنَّات النَّعيم﴾ (القلم: ٣٤).

٤ ـ وهم لا يذهبون *إلى* الجنة سيرًا على *أقدامهم* بل يحشرون *إليها* ركبانًا:

مع أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقرب إليهم الجنة تحيةً لهم ودفعًا لمشقتهم، كما قال تعالى: ﴿وأُزْلِفَت الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (ق: ٣١)، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (مريم: ٨٥).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله، وصدقوهم فيما أخبروا، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما

---

(١) «الكشاف» (٣/ ٢٨).

زجروهم، أنه يحشــرهم يوم القيامة وفــدًا إليه، والوفد هم القادمــون ركبانًا، ومنه الوفود، وركــوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة وهم قادمــون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه"[(١)].

وقــال الزمخــشري ـ رحــمه الله ـ: ذكــر المتقــون بلفظ التــبجـيل، وهو أنهم يجــمعــون إلى ربهم الذي غمــرهم برحمتــه وخصهم برضوانه وكــرامته، كما يفــد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم، وعن علي رضي الله عنه: **«ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكنهم على نوق رحالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت»**[(٢)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٣٧).

(٢) «الكشاف» (٣/ ٤٢) وأثر علي رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمــد في زيادات المسند، والطبري، وابن أبي حاتم من رواية عــبد الرحمن بن إسحــاق عن النعمان بن سعد عن علي نحــوه، وأخرجه ابن أبي داود في كــتاب البــعث من هذا الوجه مــرفوعًــا، ورواه ابن عدي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا أيضًا.

٥ ـ وهم لا يدخلون أدنى درجاتها بل يفوزون فيها بأعلى الدرجات وأفضل النعيم، نسأل الله من فضله العظيم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ (النبأ: ٣١)، وقال تعالى: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (ص: ٤٩)، والمآب هو المرجع والمنقلب، ثم فصل ذلك ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ (ص: ٥٠-٥٤).

وبين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قربهم من الحضرة واللقاء والرؤية والبهاء. فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٥٤-٥٥).

قال القرطبي: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي: مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، وهو الجنة ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي:

يقـدر على مـا يشاء و(عند) هاهـنا عنـدية القربة والزلفـة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة[1] .

وقال الزمخشري: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي، وقرئ ﴿فِي مَقَاعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مقربين عند مليك مـبهم أمـره في الملك والاقـتدار، فـلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقـدرته، فـأي منزلة أكـرم من تلك المنزلة وأجـمع للغبطة كـلها والسعـادة بأسرها[2] ولا عجب في ذلك فـقد جمع الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ للمـتقين كل نعـيم الآخرة، فـقال تعـالى: ﴿وَالآخِـرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُـتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٣٥)، وقال تعـالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)، ووصف دارهم فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (النحل: ٣٠) .

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٦٣٢٠).
(٢) «الكشاف» (٤/ ٤٤٢).

٦ ـ وهي تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صداقة ومحبة إلى عداوة ومشاقة:

قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧).

قال الزمخشري: تتقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتًا إلا خلة المتصادقين في الله فإنها الخلة الباقية المزدادة قوة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله، وقيل: إلا المتقين والمجتنبين أخلاء السوء[1].

فالمتقون هم الذين تدوم محبتهم وخلتهم كما قيل:

ما كان لله دام واتصل

وما كان لغير الله انقطع وانفصل

---

(١) «الكشاف» (٣/ ٢٦٣).

ومن بركة التقوى كذلك ينزع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: ٤٥-٤٧).

قال ابن الجوزي: قال ابن الأنباري: ما مضى من التآخي قد كان تشوبه ضغائن وشحناء، وهذا التآخي بينهم الموجود عند نزع الغل هو تآخي المصافاة والإخلاص[١].

٧ ـ وهم يسعدون بالصحبة والمحبة وهم يساقون إلى الجنة زمرًا زمرًا:

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣).

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ٤٠٤) المكتب الإسلامي.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة ﴿ زُمَرًا ﴾ أي: جماعة؛ المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم كل طائفة مع ما يناسبهم؛ الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، وكل زمرة تناسب بعضها بعضًا[١].

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾، والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته، وقال في حق الفريقين: ﴿ وَسِيقَ ﴾ بلفظ واحد فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥).

سوق مـراكبهم إلى دار الكرامـة والرضوان، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كـما يفعل بمن يشـرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين[١].

وقيل كل جمـاعة أو طائفة تعاونت على الخـير والطاعة فإنهم ينادون يوم الـقيامة ويـكونون زمرة من الزمر المسـاقة إلى الجنة.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٧٢٨-٥٧٢٩).

خاتمة

نسأل الله حسنها إذا بلغت الروح المنتهى

وقد سعدنا بصحبة التقوى وأهلها وثمارها بين طيات هذا الكتاب المبارك، فهل لك يا أخي القارئ الكريم في أن تحقق لنفسك السعادة في لحظة واحدة، وهي لحظة صدق يجلس فيها العبد إلى نفسه فلا يخدعها ولا تخدعه، يفكر فيما مضى من عمره، ويتذكر قول القائل: ما مضى من أعمارنا وإن طالت أوقاته فقد ذهبت لذاته وبقيت تبعاته، وكأنه لم يكن إذا جاء الموت وميقاته، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** ﴾ (الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧). تلا بعض السلف هذه الآية وبكى وقال: إذا جاء الموت لم يغن عن المرء ما كان فيه من اللذة والنعيم، وفي هذا المعنى ما أنشده أبو العتاهية للرشيد حين بنى قصره واستدعى إليه ندماءه.

عش مـا بدا لك سـالمًا ■■■ في ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت ■■■ لدى الرواح وفي البكور
فـإذا النفوس تقعقعت ■■■ في ضيق حشرجة الصدور
فـهناك تعلم موقنا ■■■ ما كنت إلا في غرور(١)

فالدنيا معبر لا مقر وراحلة لا مكث، والسعيد من اتعظ بغيره وانتهز فرصة الحياة الدنيا في التزود للآخرة.

قال الحسن: نعمت الدار كانت للمؤمن، وذلك لأنه عمل فيها قليلاً وأخذ منها زاده إلى الجنة، وبئست الدار الدنيا كانت للكافر والمنافق وذلك لأنه أضاع فيها لياليه وأخذ منها زاده إلى النار، وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة ثمينة تستطيع أن تشتري بها كنزًا لا يفنى أبد الآباد:

يا من بدنياه انشغل ■■■ وغـره طول الأمل
الموت يأتي بغتةً ■■■ والقبر صندوق العمل

---

(١) باختصار وتصرف من «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي (٣١٥، ٣١٧) دار الجيل.

فهل لك يا عبد الله في الفلاح والنجاح والفوز والنجاة في لحظة واحدة، لحظة صدق تتذكر ما مضى من جنايات ومخالفات فتصلح الماضي بتوبة، وتصلح الحاضر بعمل صالح، وتصلح المستقبل بعزيمة صادقة ونية مخلصة على الاستمرار في طاعة الله - عزَّ وجلَّ - والتزود بالتقوى.

قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢).

وقال النبي ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم»[1]. فما أوجزه وأطيبه وأجمعه لخيري الدنيا والآخرة وكيف لا وهو من كلام من أوتي جوامع الكلم ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (٢/٨-٩) الإيمان، وأحمد (٣/٤١٣)، (٤/٣٨٥) وفيه زيادة، قال: وما أتقى فأومأ إلى لسانه، ورواه الترمذي (٩/٢٤٩) الزهد، وابن ماجه (٣٩٧٢) بلفظ: «قل ربي الله».

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: هلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، وإنما هو عمل القلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك راحة ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك.

فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين فإن

أضعتـه أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حـفظته مع إصلاح الوقـتين اللذين قبله وبعـده بما ذكر نجـوت وفزت بالـراحة واللذة والنعيم»[١].

نســأل الله أن يخــتم لنا بخــاتمة الســعــادة، وأن يرزقنا الحسنى وزيادة، وأن يجعلنا من عباده المتقين، الذين يسـعـدون في الدينا بالطاعـات ومـحـبـة رب العـالمين، وفـي الآخـرة بالجنات والنظر إلى وجـه الله الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) «الفوائد» (١٥١-١٥٢)، دار الدعوة.

مراجع البحث

(أ) تفاسير:

١ ـ «أضواء البيان»، لمحمد الأمين الشنقيطي، المدني.
٢ ـ «تفسير القرآن العظيم»، للحافظ ابن كثير، دار المعرفة.
٣ ـ «جامع البيان»، لابن جرير الطبري، دار المعرفة.
٤ ـ «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي، الشعب.
٥ ـ «روح المعاني»، للألوسي، دار التراث.
٦ ـ «زاد المسير»، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي.
٧ ـ «فتح القدير»، للشوكاني، دار المعرفة.
٨ ـ «في ظلال القرآن»، لسيد قطب، دار العلم ببنها.
٩ ـ «الكشاف»، للزمخشري، الريان.
١٠ ـ «محاسن التأويل»، للقاسمي، دار الفكر.
١١ ـ «المنار»، لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة.

(ب) حديث:

١ ـ «بلوغ المرام في تخريج الحلال والحرام»، للألباني، المكتب الإسلامي.

٢ ـ «جامع الأصول»، لابن الأثير، دار الفكر.
٣ ـ «سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي»، دار الكتب العلمية.
٤ ـ «سنن ابن ماجه» بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية.
٥ ـ «سنن الدارمي» دار الكتب العلمية.
٦ ـ «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني، المكتب الإسلامي.
٧ ـ «شرح السنة» للبغوي، بتحقيق الأرناؤوط، دار بدر.
٨ ـ «صحيح الجامع الصغير وزياداته» للألباني، المكتب الإسلامي.
٩ ـ «صحيح ابن ماجه» للألباني، مكتب التربية العربي الدولي.
١٠ ـ «صحيح النسائي» للألباني، مكتب التربية العربي الدولي.
١١ ـ «صحيح الترمذي» للألباني، مكتب التربية العربي الدولي.
١٢ ـ «عون المعبود شرح سنن أبي داود» لشمس الحق أبادي المكتبة السلفية.
١٣ ـ «عارضة الأحوذي» شرح سنن الترمذي لابن العربي، دار الوحي المحمدي.

١٤ ـ «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر، طبعة السلفية.
١٥ ـ «فيض القدير شرح الجامع الصغير» دار المعرفة.
١٦ ـ «مستدرك الحاكم وبهامشه التلخيص» للذهبي، دار المعرفة.
١٧ ـ «مسند الإمام أحمد بفهرس الألباني» المكتب الإسلامي.
١٨ ـ «موطأ مالك»، ط الحلبي.
١٩ ـ «مسلم بشرح النووي»، المطبعة المصرية.
٢٠ ـ «المعجم المفهرس»، لجماعة من المستشرقين، دار الدعوة.

(جـ) رقائق ومواعظ:

١ ـ «استنشاق نسيم الأنس» لابن رجب، دار الفتح.
٢ ـ «تفسير المعوذتين» لابن القيم، السلفية.
٣ ـ «تلبيس إبليس» لابن الجوزي، المتنبي.
٤ ـ «جامع العلوم والحكم» لابن رجب، الحلبي.
٥ ـ «الجواب الكافي» لابن القيم، دار عمر بن الخطاب.

٦ ـ «شرح حديث (**ما ذئبان جائعان**)» لابن رجب، دار الفتح.
٧ ـ «صيد الخاطر» لابن الجوزي، دار الكتب العلمية.
٨ ـ «صيانة الإنسان» لابن مفلح، دار الكتب العلمية.
٩ ـ «طريق الهجرتين» لابن القيم، السلفية.
١٠ ـ «رسالة المسترشدين» للمحاسبي، بتحقق أبو غدة، دار السلام.
١١ ـ «روضة المحبين» لابن القيم، دار الصفا.
١٢ ـ «الرسالة التبوكية» لابن القيم، بتحقيق أشرف عبد المقصود، التوعية الإسلامية.
١٣ ـ «غالية المواعظ» لنعمان محمود الألوسي، دار المعرفة.
١٤ ـ «الفوائد» لابن القيم، دار الدعوة.
١٥ ـ «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي، دار الجيل.
١٦ ـ «منهاج العابدين»، للغزالي، مكتبة الجندي.
١٧ ـ «نور الاقتباس» لابن رجب، المدني.
١٨ ـ «المدهش» لابن الجوزي، دار الكتب العلمية.
١٩ ـ «المصباح المنير» للرافعي، دار المعرفة.

الفهرس

الموضـــوع	صفحة